وغربت الشمس

وغربت الشمس

روايـــــة

سـارة شوقي العقاري

وغربت الشمس

اسم الكاتبة: ســارة شـوقي العقـاري
تدقيق لغوي: محمد حمدي الحفناوي
تصميم الغلاف: يوسف الشرقاوي
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى
رقم الإيداع: 2018 / 23220
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6610 – 43 – 9

Arabiclibrary2017@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017

01030365801

جميع الحقوق محفوظة

إهـــــداء

إلى أول رجلٍ أحببته في حياتي

إلى ذاك الرجل الذي آمن بي حين رماني الآخرون بسم

كلامهم فزادت مناعة أملي لأصل إلى ما أريد.

إلى معالي الحبيب أبي... أحبّك.

إلى القانون المصري

الذي لا يزال يغط في سباتٍ عميقٍ

أما آن الأوان كي تستفيق بعد؟

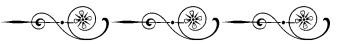

إلى روب المحاماة الأسود

أما آن الأوان كي تكون أسود على كل ظالمٍ

أبيض لكل مظلومٍ؟

(١)

لقاء على الطريق

- قضي الأمر؟

نظرت إلى أبيها، وهو يقف عند باب حجرتها، بادرته بابتسامتها الهادئة قائلة:

-أجل قضي الأمر.

وضعت آخر قطعة ملابس في حقيبتها، ثم نظرت إليه عاقدةً ساعديها أمام صدرها قائلة:

-أراك تتأملني يا أبي لا شيء علي سأعود بعد عامٍ واحدٍ فقط، ثم إنني لا أرى أي مبررٍ لمكوثي هنا في هذه المرحلة الراكدة من حياتي.

اقترب منها في هدوءٍ، أجلسها على طرف الفراش، جلس أمامها، ثم رفع ذقنها إليه، تأملها ملياً، ثم قال بصوته الرخيم:

-تعجبني قوتكِ، إظهاركِ للقوة رغم أنكِ في أشد حالات الضعف.

رفعت حاجبيها في دهشةٍ، حاولت إخفاء دمعةٍ على وشك السقوط، آثرت الصمت، لو نبست ببنت شفة لبكت.

-رفع ذقنها إليه مجدداً قائلاً:

- ليس كل من يفقد أمه أو صديقه يترك موطنه ويسافر إن شعر أنه على حق فليدافع عن قضيته لا سيما إذا كان دارساً للقانون.

رفعت حاجبها في اندهاشٍ قائلة:

- تعلم كل هذا !!! لمَ لم تساعدني إذن؟

-أساعدكِ.. أساعدكِ في ماذا؟ من المفترض أنكِ تعلمين وضعي السياسي والأمني.

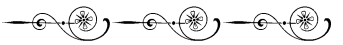

- كف عن هذا الضجيج، أنت لست صغيراً، ثم إن أباك يرى أنها الفتاة الوحيدة في مصرالتي تليق بأدهم النشار أفهمت؟

-إذن انتهى الأمر.

-نعم.. انتهى، نصيحة من أخيك رغم أني أصغرك سناً، لكن أقولها لله لا تعادِ والدك ثم إنك أوشكت على الثلاثين عاماً فلماذا لا تتزوج إذن؟

لم ينبس أدهم ببنت شفة، استدار خارجاً من الغرفة، صفق الباب خلفه في عنفٍ، ثم اجتاز السلم في خطواتٍ واسعةٍ.. طرق باب مكتب والده ولم ينتظرالإذن بالدخول، رفع الأب رأسه الذي كساه الشيبُ في هدوءٍ، تصنع الابتسامة ثم قال في صوتٍ هادئٍ:

اجلس يا أدهم لعلك قدرت موقفي كأبٍ ربى طفليه الوحيدين، ويريد أن يرى أحفاده قبل أن يداهمه الموت.

-أطال الله فى عمرك يا أبي.

-يا بني هذه سنة الله في خلقه، لمَ تستكثرعلى والدك مثل هذه اللحظات؟

زفر أدهم زفرةً حارةً ثم قال في ألمٍ:

-إذن أين أمي؟ كيف تريد مني أن أدخل في حياتي امرأة رغم كل ما رأيته من أمي، تلك المرأة التي اختفت من حياتنا دون سابق إنذارٍ مخلفة وراءها طفلين وزوجاً دون أن تأبه لاسم زوجٍ هربت مع سائقه.

امتقع وجه والده، ثم تنهد فى ألمٍ قائلاً:

- أيمكنني إخبارك بشيءٍ لم تعلمه من قبل؟ لكن عدني أن تكتمه.

- بالطبع أعدك.

- أمك لم تهرب، تصرف من تصرفات أبيك كان دافعا قوياً لأن تفعل ما فعلت، لم يكن أمامها إلا أن تفر بروحها خوفاً مني، وليس كما يعتقد الكثيرون بأنها أحبت سائقي.

-تقصد أنك مَن اختلق قصة الزوجة المذنبة التي فرت مع سائق زوجها لأنها تحبه ؟!

- نعم..تجمدت العبرات على أعتاب عينيه..وغادر مكتبه في صمتٍ إلى غرفته.

- لم يكن أمامه إلا أن يفترش الأرض مصلياً لله لعله ينجيه مما هو فيه، حاول أن يتذكر شيئاً عن أمه لكن ذاكرته لم تسعفه، كل ما يتذكره هو زجر أبيه له كلما ردد هذه الكلمة وهو صغير، حتى بات لفظاً محرماً لا يحق لمثله أن يستخدمه، حُرم منها وهو في الرابعة من عمره، لم يرها منذ ذاك الوقت، وهو الذي يملك من العمر الآن الثمانية والعشرين عامًا.

لم يكن يعلم أن هناك عيناً تراقبه، كان يتصرف على سجيته.

حينها كانت هى واقفة هناك في الفيلا المقابلة تتابعه عن كثبٍ، ترى أنه يشبه فارس أحلامها كثيراً، فارع الطول، قوي البنية، سمرته المحببة، وعيناه الثاقبتان، وشعره اللامع المهذب.. رغم ملامِحِه الشرقية إلا أنه كان جذاباً في كل شيءٍ، أخلاقه، تواضعه، سجوده كلما ضاقت به الدنيا، خاصة وأن الطبقة التي يحتلونها لم تكن دائمة السجود.

-كانت تشعر أنه يشبهها في كل شيءٍ، رغم أنها لم تحادثه قط إلا أنها كانت تعلم عنه الكثير، ألم تكن دائماً متلصصة على غرفته، طرقات هادئة على الباب أعادتها من شرودها إلى الواقع، كان الطارق أبوها، يحمل ابتسامته على وجهه كالعادة.

قبل رأسها في أسىً قائلًا:

- ستغادرين غداً ؟

أجابت بإيماءة من رأسها أن نعم.

-إذن فلتعدي حقيبتكِ، ستغادر الطائرة فى الثامنة صباحاً.

اتجه إلى الباب خارجاً من الغرفة لكنه التفت إليها وكأنه تذكر شيئاً ما:

-أروى إن علاج المصائب هو أن نواجهها، لا أن نفر هاربين منها.. أأخبركِ شيئاً ؟ أعلم أن سبب سفركِ ليس من أجل دكتوراة فى القانون كما تزعمين لكنه هروبٌ من واقعكِ.

خرج قبل أن تستوعب ما قاله، وضعت يدها على رأسها في محاولةٍ منها للسيطرة على الدوار الذي يكاد يعصف برأسها.. لماذا لم يتدخل أبي إذن؟ ألإنها محجبة تحمل في حقيبتها مصحفاً، وتتحدث في الدين تصبح إرهابية يخشى على الوطن منها ومن أمثالها؟.. فقط إرهابية يجب الزج بها في غياهب السجون!

أكملت إعداد الحقيبة وهي شاردة الذهن ستغادر هذه الأرض بعد عدة ساعات، الأرض التي احتوتها هي وأمها ساعات الأنس مع تلك الصديقة التي لم تعد تعلم عنها شيئاً.. يا لي من خائنةٍ بمجرد أن فرقنا القدر قررت الهروب، كان لابد أن أكون غير تلك الضعيفة التي قررت الانسحاب حادثت نفسها بصوتٍ عالٍ:

-انسحاب!! أي انسحابٍ؟ أنا لم أغادر إلا من أجلها ..ألم أغادر إلى فرنسا بلد القانون من أجل أن آتي بعد سنةٍ كي أدافع عنها وعن مثيلاتها ؟.. دكتوراة في القانون من فرنسا تجعلني أكبر من مجرد محاميةٍ شابةٍ تدافع عن صديقتها بهدف الاندفاع أوالصداقة.

لا كان يجب أن أزورها أولاً، أن أعثر على محبسها وأخبرها بما انتويت فعله، أن أبثها الثقة والأمل، وأن أخبرها بأن هناك من يفكر فيها ويتعب لأجلها.

كان يجب أن أذهب إلى أهلها على الأقل، أو أقضي حاجتهم ببعض المال.. رباه لم يعد الآن لدي وقت، الساعة الآن الثالثة بعد الظهر أمامي فقط بضعُ ساعاتٍ، ثم إن الأسرة تقيم بالإسكندرية ذهاباً وعودة بعد منتصف النهار من الصعب معه أن أغادر في الثامنة صباحاً إلى فرنسا.

يبدو أنها ركنت إلى هذا الأمر..استلقت في سريرها، مرت بضع دقائق ثم هبت واقفة وكأن عقرباً لدغتها، ارتدت ملابسها على عجلٍ، أمسكت بورقةٍ من إحدى دفاترها، خطت عليها بعض الكلمات، ثم وضعتها في يد إحدى الخادمات قائلة:

-أوصليها لأبي، ركبت سيارتها على عجلٍ، وانطلقت في طرقات القاهرة، لحسن الحظ كانت الطرقات شبه هادئة، لقد ولت ساعة الذروة .. أطلقت العنان لسيارتها بمجرد أن وصلت إلى طريق القاهرة الإسكندرية الصحراوي، انقضى على قيادتها في هذا الطريق ساعة ونصف، تبسمت في ظفر مخاطبة نفسها.. أخبرتني عائشة إن السفر في هذا الطريق يستغرق من الوقت ثلاث ساعاتٍ، إن الأمر ليس بالصعوبة التي تصورتها، أمسكت بهاتفها كي تغلقه تجنباً لاتصالاتِ والدها، تعلم جيداً أنه يحبها لكنها لا تقوى الآن على تحمل توبيخاته.

انتبهت من شرودها وصوت أذان المغرب ينتشر في الآفاق، يا الله كم تخشى الظلام، يجب عليها أن تسرع لم يبق بينها وبين الوالدين المسنين سوى ساعةٍ واحدةٍ ..أطلقت العنان لسيارتها أكثر، ولكن دائماً الرياح تأتي بما لا تشتهيه السفن، لقد انفجر إطار السيارة الأمامي في طريقٍ مظلمٍ لا يوجد به أحد سوى سياراتٍ عابرةٍ.

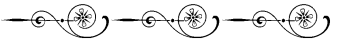

وقفت أمام زجاج الغرفة، تحملق في هذا الجسد الهزيل منذ شهرٍ وهي على تلك الحالة لا يوجد أي تقدمٍ، ثلاثين يوماً فاقدة للوعي، لا يصلها بهذا العالم سوى بضعةِ أسلاكٍ، تزاحمت ذكرياتها مع تلك الراقدة، لم تمنحها الكثير لكنها بالتأكيد منحتها كل ما تملك حتى لم تعد تملِك شيئاً، لم تشعر يوماً بغربةٍ في وجودها كانت هي الوطن ألم تكن أماً؟

منذ أن وعت هذه الحياة وهي تبحث عن الانتماء، عن دفء العائلة، عن رب الأسرة، منذ أن ولدت وهي تعلم أنها ابنة المجتمع غيرالمرغوب فيها، لكن وجودها كان يهون كل شيءٍ، لم تشعر يوماً بالانتماء، لكنها دائماً كانت تمتلك الوطن متمثلاً في هذه الأم.

-دكتورة نسيم.

-انتبهت من شرودها لتحدق في هذا الواقف أمامها بعينيه الخضراوين الواسعتين، وبشرته البيضاء، وشعره البني الداكن، ورغم كل هذا علمت أنه ليس فرنسي الأصل.

-حجابكِ أعلمني أنكِ مسلمة، حتى لولم تكوني كذلك أراكِ في مأزقٍ، ومن المحتم عليّ أن أساعدكِ فهذه السيدة ليست أماً لكِ وحدكِ بل هي أم لكل مسلمي فرنسا.

-هنا وضع يديه في جيبه ثم أخرج ورقة من جيبه مطبوعاً عليها رقم هاتفه، رغم ذهولها هي التي كانت قبل ثوانٍ قليلةٍ تشتكي مرارة الغربة، وفقدان الانتماء، يرسل الله لها ذاك الذي يخبرها بأن هذه الراقدة ليست أماً لها وحدها بل أماً لكل مسلمي فرنسا.. مسحت دمعة ترقرقت في عينها، ثم غادرت ممر المشفى.

-آثرت أن تستخدم ذاك السلم المزدحم بالمرضى وذويهم، كم تكره الانتظار! لهذا تفضل دائماً استخدام السلم عن المصعد، جلست في حديقة المشفى ولديها قوة سحرية، لم تدرِ لمَ كل هذا الأمل؟ أهو الإحساس بالانتماء الذي لم تعتده يوماً؟ تعلم جيداً أنها لن تهاتفه.. تعودت أن تواجه مشاكلها وحدها دون مساعدةٍ من أحد لكن مجرد الإحساس بأن هناك من سيصعد بنا إذا وقعنا مطمئن لنا معشر الفتيات.

الجو مظلم، الحرارة ما زالت منتشرة رغم حلولِ الليلِ، وتقف في منطقةٍ مهجورةٍ بجانب الطريق، أي مأزقٍ هذا؟ أمسكت بهاتفها قائلة:

-لا يوجد حل آخر، لابد أن أخبر أبي سأظل هنا إلى أن يرسل إليّ أحد.

-ولأن المصائب لا تأتي فرادى، بمجرد أن أمسكت هاتفها وحاولت الاتصال انقطع دعم البطارية للهاتف.

- يا ألله ما كل هذا !!!

-ترجلت من السيارة، ثم وقفت بجانبها على الطريق، كانت العربات المسافرة شديدة السرعة، لكنها رغم السرعة استطاعت أن ترى الاندهاش في عيون أصحابها.. حقهم !!!

-ما الذي يجعل فتاة تقف ليلاً على هذا الطريق قرب الإسكندرية، يمكنها أن تتصل بأهلها حتى يرسلوا لها العون، حقاً لا نعي قيمة المصائب إلا إذا كنا نحن ضحيتها.

-قلبها كان يرتجف، ولكنها كالعادة تتصنع الصمود، هذه الفترة الخاملة من حياتها أورثتها ضعفاً لم تعهده في نفسها من قبل.

-من بعيد رأت سيارة تتهادى بجانب الطريق، هي لا تعلم نية صاحبها، لكن كل ما تعلمه أن السيارة تأتي باتجاهها، توقفت السيارة وراء سيارتها.. ثم رأت بابها يفتح، نظرت في تأهبٍ لترى ذاك الذي قرر أن يساعدها أو أن يعتدي عليها، هي لا تدري ما نيته بالضبط، حملقت بالسيارة في فضولٍ لتجده آخرَ شخصٍ يمكن أن تتوقع وجوده هنا وفي هذا المكان تحديداً.

في تلك الليلة الثقيلة على نفسه اتخذ من كلام أبيه دافعاً للسهر، لم يزر النومُ جَفنيه، ظل محدقاً بسقف الغرفة في محاولةٍ منه لمعرفة ذاك الدافع الذي يدفع بامرأةٍ أن تترك ولديها فارة من زوجها، ما السبب الذي يجعلها تضحي تضحية أكبر من أن تحتملها أيُ أمٍ؟ أن يكون الثمن هو فلذات كبدها، إذن فهي ليست خائنة، ولم تكن كذلك يوماً، يعلم جيداً أن قلبه طوال السنوات الماضية كان ينكر هذا، لكنه كان يعلل هذا بأنه لا زال صغير السن

لا يستطيع أن يفرق بين الحقيقة وعكسها، ثم يأتي والده اليوم ليخبره بأن أمه بريئة من كل ما نُسب إليها براءة الذئب من دم ابن يعقوب!

ماذا لوكانت هذه خدعة، مجرد محاولةٍ من الوالد لإقناعه بالزواج ، فهو يعلم جيداً أن هذه النقطة بالذات مكمنُ عقدته النفسية، لعله الآن أراد أن يزيل هذا التفكير البائس، فلم يجد حلاً غير هذا، ظلت تراوده الأفكار والهواجس حتى صدع المؤذن بالنداء لصلاة الفجر.

قام ليتوضأ، يا ألله هذا عمل يومٍ جديدٍ.. دون أن يغمض له جَفن.. أدى صلاته في هدوءٍ، وقام في عجالة، عليه أن ينجز بعض الأعمال في فروع الشركة بالمحافظات قبل اجتماع الغد.

لم يعد أمامه إلا أربعٌ وعشرون ساعة من الآن، عليه أن يتجه إلى مقر الشركة أولاً لينجز بعض الوثائق، ثم يتجه إلى أربع محافظاتٍ للإشراف على ما يخص صادراتِ كل شركةٍ من الشركات الأربع، طوى سجادته ثم غادر إلى غرفة أخيه.. طرق الباب، فأتاه الإذن بالدخول.

-أساهر حتى الآن؟.. أشرقت الشمس، ألن تتحمل المسئولية يوماً؟

-نعم، لم اتخذ هذه الخطوة بعد.

-كف عن هذا العبث واستمع إلي، معي عدة أوراق أريد توثيقها من المكتب، ثم آتي بها إلى أبيك ليوقع عليها.. أما أنا فسأسافر فوراً لأفرع الشركة بالمحافظات، ثم تغيرت لهجته وهو يقول بصوتٍ حادٍ:

-أنا ذاهب لارتداء ملابسي عشر دقائق فقط ونتقابل في الحديقة، أسمعت؟

اتجه إلى غرفته ليبدل ملابسه، وبالفعل تقابلا في ردهة الفيلا.

-ها هي الوثائق، افعل ما طلبته منك وإياك وإهمال توقيع إحداها.

-لا تقلق بشأنها سأنام.

-ماذا ؟!

-أقصد سأوقعها جميعاً، قلت لك: لا تقلق.

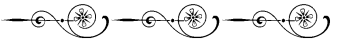

كان اليوم شاقاً لابد من إنجاز بعض الفحوصات قبل الذهاب لمحاضرتها، لابد أن تكتب تقريراً وافياً عن أحوال المصابين بمثل هذا المرض، وإلا سوف تتعرض لعقد ذاك الدكتورالمغرورالذي لا ينعتها إلا بالإرهابية، وابنة عم أسامة بن لادن.

رغم وداعتها، وشهادةِ كل من يراها بأنها رقيقة الطباع، مرهفة الحس إلا ذاك المتعجرف الذي لا يرى شيئاً سوى أنها إرهابية رجعية متخلفة، مكانها ليس هنا لدراسة الطب، بل هناك في الصحراء، الأولى لها أن تمسك العصا وترعى الإبل.

مجرد التفكير فى هذا ألهب حماستها، لابد أن تثبت له أن الإسلام ليس لهؤلاء الذين يرعون الإبل فقط، ولا للذين لاعمل لهم إلا رعي الغنم في قلب الجزيرة العربية، لابد أن تثبت له أن الدين قد أنجب الأطباء والمهندسين والطيارين وأساتذة الجامعات.

ارتدت البالطو الأبيض على عجلٍ، أخذت ملفها واتجهت صوب الممر الذي يقطنه المرضى الخاصين بها، جلست بجانب سريرأحدهم، كان مسناً، ويعاني من اضطرابٍ في ضربات القلب عند أي إجهاد أو انفعالٍ.. كانت تدرك

أن الطبيب الناجح هو الأقرب إلى قلب مريضه.. لابد أن تطمئنه أولاً حتى تستطيع أن تعلم الحدث الصحي الفارق في حياته، والذي كان السبب في سوء حالته بهذا الشكل ولكن دون أن يسبب ذكره لتلك المأساة تراجعاً في حالته.

جلست بجانب الرجل، تعلو وجهها ابتسامة عريضة، منحت ابتسامتها للرجل بعض الطمأنينة، أخبرته بأنها الطبيبة المكلفة بمراقبة تطور حالته المرضية، وأنها ترغب أن تكون صديقة أكثر من مجرد طبيبة، ألقت نظرة على الملف الخاص به، وأخذت تستفسر عن تطور المرض، لاطفته ببعض الكلمات، ثم استأذنت منه خارجة وانصرفت.

باقي ثلاثة من المرضى فقط، عليها أن تنجز الحالات الثلاث قبل حلول موعد تسليم ومناقشة الملفات، ثم الذهاب إلى غرفة أمها، تلك الراقدة بالعناية المركزة، هي لا تتمنى من الدنيا شيئاً إلا أن تظل بجانبها حتى لو مريضة، مجرد وجودها يبعث في النفس الاطمئنان، بخبرتها الطبية تعلم أن الشفاء الكامل لا أمل فيه، لكن كل شيءٍ بإرادة الله، رغم ذلك كل ما ترنو إليه هو ألا يسترد الله هذا الجسد، مجرد وجودها حتى لو بقلب سرير بغرف العناية يشعرها بالسند، وهي التي لم تعرف السند يوماً، هي التي لم تستشعر وجود رجلٍ وربٍ للأسرة يمكن أن يعتمد عليه.

لملمت ملفاتها واتجهت إلى حجرة الطلاب الخاصة بها، كانت تنتظر دورها في الاستجواب وليس في التقييم.. نعم هو استجوابٌ عن الإسلام أكثر منه تقييماً للحالة الصحية لبعض المرضى.

أمسك ملفها، وظل يديرعينيه بقراءةٍ صامتةٍ، وتعلو شفتيه ابتسامته المعتادة، تلك الابتسامة الممزوجة بالسخرية، وضع الملف أمامه ونظر إليها متهكماً:

-أهذا كل ما توصلتي إليه عن هذا المرض في طوره الأول؟

-أجابته بابتسامة واثقة:

نعم، هذا كل ما توصلت إليه.. ثم إن كانت هناك بعض المعلومات التي لم أستطع أن أتوصل إليها فلتخبرني بها أنت، ما دمت أنت المسؤولَ عن دراستنا ومستوانا العلمي والعملي، وأيُ نجاحٍ أحققه لك منه نصيب، وأيُ إخفاق يصيبني لك منه نصيب أيضاً كطبيب مسؤول عن طلابه.

نظر إليها في دهشةٍ قائلاً:

-أعلم أن أي نجاحٍ أو إخفاقٍ سيصبني منه نصيبٌ، لكني لستُ مسئولاً عن أولئك الفاشلين الذين لم يتبعوا تعليماتي جيداً.

أجابته بابتسامة ظفر:

-الإسلام أيضاً غير مسئول عن أولئك الفاشلين الذين لم يتبعوا تعليماته جيداً.

نظر إليها متفحصاً، ما هي تعليماتُ إسلامكِ إذن؟

-إسلامي أقر العدل، ورفع الظلم، وحرم قتل الأبرياء.. إسلامي حرم الإكراه في الدين، وحرم قتل الأطفال والشيوخ والنساء، حرم اقتلاع الأشجار، وتسميم الآبار حتى في أوقات الحروب، إسلامي أمرني أن أكون محارباً بشرفٍ وإلا فلا.

-لذلك كنتم تغزون العالم، ترتكبون المجازر ضد الأبرياء حتى يدخلوا في الدين أو يدفعوا الجزية.

-كلا، الإسلام كان بمثابة المنقذ لهؤلاء.. الإسلام خلص نصارى مصر من حكم "سبتيموس" و"صفرنيوس"، ذلك الحكم الدكتاتوري، ألم تقرأ عن تاريخ هؤلاء؟ ألم تقرأ عن العقوبات الثلاث التي كانوا يطبقونها على كل من دخل المسيحية؟ ألم تقرأ عن الموت حرقاً، أو أن يقدم المسيحي طعاماً للأسود، أو أن تقطع رقبته بالسيف؟

مَن خلص هؤلاء من هذه الاعتداءات السافرة على حقهم في اختيار دياناتهم؟ صدقني الإسلام لم ينتشر بحد السيف.

-وماذا عن الفتوحات الإسلامية؟ ألم تكن بحد السيف؟

- لا، لم تنتشر بالسيف، ألم تقرأ في تاريخ التجار المسلمين وأخلاقهم التي كانت السبب الرئيسي لانتشار الإسلام في الأندلس وسنغافورة .

أما عن الفتوحات، كان الخليفة المسلم يرسل لملوك البلدان المجاورة، أسلم تسلم.. أو ادفع الجزية فإن أبوا الاثنين فالحرب.

-جزية!! لماذا ضريبة مكوثهم في بلدانهم؟ ألم يكن هذا اغتصاباً للحقوق؟

-الجزية لم تكن اغتصاباً لحقوق هؤلاء وأموالهم، بل كانت للدفاع عنهم، ورد أيِ اعتداءٍ دون أن يقحموا شباب هذه الأرض في الحروب.

الإسلام هنا حارس لا مهلك، وأخيراً إن كنت تراني كذلك فدعني وشأني، وليس لك إلا تقييم ملفي الطبي، وأرجو أن ينال استحسانك، لا أن يكون تقيم ديني وسلوكي.. كان منصتاً لها بكل جوارحه، لكن تعلو شفتيه ابتسامة هزلية، لا تتناسب مع اندفاعها وحماستها من أجل الدفاع عن عقيدتها، نظرت إليه متوجسة تستأذنه فى الانصراف، سمح لها باسترجاع ملفها، ثم بادرها قائلاً:

-في المرة القادمة لا أريد أن أجدكِ هنا تطلبين العلم.. فمكانكِ هناك.. بالمناسبة أنتظر رسالتكِ التي تخبريني فيها أن أسلم أو أن أدفع الجزية، وإلا فلتمسكي سيفكِ وتقاتليني به فمثلكِ لا يليق به إلا السيف أو رعي الغنم.

نظرت إليه في ذهول ألجمتها المفاجاة، إنه هو تمتمت قائلةً:

-ما هذا القدر الذي رف.....

-بادرها قائلاً:-

-أرى أن سيارتكِ قد تعطلت، وأنكِ ترجلتِ منها تطلبين المساعدة، يمكنني أن أصل بكِ إلي داخلِ الإسكندرية، فلدي عملٌ هناك، أعتقد أن طريقنا واحدٌ.. لم تبنس ببنت شفة، لم تستفق من ذهولها بعد، القدر يأبى عليها أن تلتقيه في القاهرة ولو لمرةٍ واحدةٍ فقط رغم أنها جارته، ليأتي به إلى هنا خلفها على أعتاب الإسكندرية.

-آنستي أسأل عن غطاء السيارة.. أو هل كلفتي أحدٌ بإصلاحها ؟

-هزت رأسها ألا .

-قام هو بمهمة تغطيتها، ثم فتح باب سيارته الأمامي ليجلسها بجانبه، أدركت حينها أنه خشي أن تستخدم مكانها بالمقعد الخلفي كوسيلة لتقويضه أثناء القيادة، ابتسمت بمرارةٍ، كيف بأروى الشرقاوي أن يظن بها أحدٌ هذا الظن، هونت على نفسها بأنه لا يعرفها.

-اتخذ مقعده بجوارها، نظر إليها متفحصاً، وجدها تمسك بهاتفها، بادرها قائلاً:

-يمكنكِ أن تتصلي بأبيكِ أوأخيكِ الآن فالسيارة ليست في مأمنٍ.

أجابت دون أن تنظر إليه:

-لقد نفذ شحن البطارية لسوء الحظ.

-نفذت بطارية هاتفي الشخصي أيضاً، يمكنكِ أن تستخدمي هاتف العمل، ثم مد يده لها بالهاتف دون أن ينتظر ردها.

ضغطت عدة أزرارٍ، وظلت تسمتع إلى الرنين على الخط الآخر، ثم كان صوت والدها:

-مَن المتكلم؟

-أبي.. أنا أروى.

-أين أنتِ يا ابنتي، ماذا حدث ؟

-لا شيءَ، أردت فقط إنجاز بعض الأمور قبل السفر، وانفجر إطار سيارتي الأمامي قرب الإسكندرية، أنا بخير لا تقلق علي، ولا ترسل إليّ السائق سأعود في قطار منتصف الليل.. أوليست الطائرة ستغادر فى الثامنة صباحاً؟.. حتماً سأكون وصلت.

أنهت المكالمة.. وضعت الهاتف وهي تتمتم ببعض الكلمات شاكرة، لم يعلق على شكرها.. بادرها قائلاً:

-اسمكِ أروى؟

-حركت رأسها أن نعم.

-لمَ تستخدمين قطار منتصف الليل؟ عندي بعض الأعمال هنا يمكنني أن أنجزها، وآخذكِ معي في طريقي إلى القاهرة .

-رفضت طلبه بأدب.

-ما المشكلة لمَ ترفضين؟

- لاأريد أن أثقل عليك..ولا أريد أن يتحمل أحدٌ نتيجة تصرفاتي.

لا ينكر أنه أعجب بشجاعتها.. ظن أنها أقوى ما يمكن أن تكون عليه امرأة، وهي أضعف ما يمكن أن تكون عليه امرأة.

-إذن أخبريني أين وجهتكِ؟، سأقوم بتوصيلكِ إلى المكان الذي تقصدين، لا يمكن أن أتركِ ليلاً في مدخلٍ من مداخل الإسكندرية هكذا.

-انتبهت في وجلٍ، يا إلهي إن الورقة المدون بها العنوان وضعتها بجانبي كي أتمكن من القيادة، ثم نسيتها على المقعد بجانبي.

كانت دموعها تنحدر على وجنتيها في صمتٍ، إحساسٌ بالضياع يجتاح كل كيانها الآن.. أما هو فقد أصابه الذهول، أهذه التي كان يشعر منذ لحظاتٍ أنها أقوى امرأة ؟ همس لنفسه قائلاً:

-حقاً وجهات النظر الأولى دائماً خطأ، نظر إليها في إشفاقٍ ثم تمتم مخاطباً نفسَه:

-إن أقسى مايمكن أن يتحمله رجل أن يرى أنثاه تائهة.. تشعر بالضياع في وجوده !!

هي لم تكن أنثاه، ولكن منذ أن تحمل مسئولية إيصالها فهي مسئولة منه حتى تصل إلى المكان الذي تريد.

لم تستفق من شرودها إلا وهو يعود بالعربة إلى الخلف عابراً أحد المنعطفاتِ بالطريق، أدركت حينها أنه عزم على العودة إلى سيارتها ليأتيا بالعنوان منها.

مسحت دموعها في حركةٍ شبه طفولية قائلة:

-وأعمالك التي تريد أن تنجز؟

أجابها بابتسامةٍ مطمئنةٍ :

-أعمالي يمكنها أن تنتظر.

كانت عقارب الساعة تشير إلى التاسعة مساءً حينما توقفت السيارة أمام إحدى البنايات التي تدل على أن قاطنيها من الطبقة المتوسطة.. شكرته في امتنانٍ، ترجلت واتجهت صوب البناية، مشت خطواتٍ قليلةٍ ثم وقفت دون سببٍ واضحٍ.

فطن إلى أنها تخشى الظلام، ترجل من سيارته ومشى باتجاهها حتى وقف بمحازاتها ثم فاجأها قائلاً:

-أي طابقٍ تريدين ؟

-الرابع.

اقتحم هو الظلام، واتبعته هى في اطمئنانٍ حتى وقف هو أمام إحدى الشقق بالدور الرابع.

كانت الإنارة أمام باب الشقة خافتة.. ويبدو أن لا أحد يسكنها، جو من الصمت يخيم على العمارة كلها كان يقطعه بالكاد الجرس الذي يضغط عليه أدهم.. أتاهم صوتٌ هادئ بعد فترة ليست بالقصيرة، ثم فتح الباب على الفور.

كان رجلاً أبيض ذا لحيةٍ بيضاء، رسمت قسوة السنين خطوطها بدقة على وجهه، لم يتكلم بل كانت نظراته تسبح في الفضاء، وبعد فترة وجيزة، قطع صوته الصمت قائلاً:

-مَن بالباب ؟.. لعللكِ أنتِ يا عائشة، تتأملينى للحظاتٍ قبل أن تعلني عن نفسكِ، ألن تكفي عن هذا العبث الطفولي أبداً؟، ثم إنني لم أسامحكِ بعد، ما هذه الغيبة الطويلة؟، أنسيتي أباكِ الكفيف، وأمكِ طريحة الفراش؟

كانت لهجته حلوة، تحمل العتاب والدعابة معاً، لكنها لم تحتمل، هذا أكبر من طاقتها.. أبٌ كفيفٌ، وأمٌ مريضة، وأخٌ مغتربٌ، وابنة سجينة.. يا ألله ما هذا الاختبار العسير، لهذا كانت عائشة تأخذني معها ملجأ لمكفوفي البصر، لهذا كانت تطلب مني كل صباحٍ أن أنظر إلى يدي، واسمع صوتي، وأحمد الله على نعمة البصر والسمع، لم أكن اعلم أن أباها..... .

-مَن.. مَن بالباب؟

أيقظها هذا الصوت من ذكرياتها، نظرت إلى الواقف بجانبها في تضرعٍ، لعله يخلصها من هذا الموقف، لقد عهدته منذ أن رأته اليوم منقذاً لها.. ما باله الآن ساكتاً لا يحرك ساكناً.

-مَن بالباب مَن صاحب هذه الأنفاس؟

-أجابته في ترددٍ:

- أنا صديقتها، جئت لأبلغكم شيئاً عنها.

-عنها؟!

معذرةً، شيءٌ أرادت هي أن تخبركم إياه فأرسلتني أنا.

-ولماذا لم تأتِ هي، لماذا تأخرت هذه المرة.. آه أسف تفضلي بالدخول يا ابنتي.

نظرت إلى أدهم فى امتنانٍ قائلة:

-سيد أدهم.. أشكرك جداً، لم.....

نظر هو الآخر في اندهاشٍ قائلا:

-أتعرفينني.. من أين لكِ باسمي؟

ازدردت ريقها في صعوبةٍ، واحمرت وجنتاها خجلاً.. إنني.....

-بالطبع أخوكِ هذا فالوقت ليلاً.. ولا يمكن أن تأتي بمفردكِ.. تفضلا.. ثم أفسح لهما الطريق.

جلسا بردهة المنزل، من الواضح أن الأثاث من النوع البسيط للغاية، لكن يبدو أنه معتنى به بشدة، شعرت بالراحة.. الجمال هو البساطة وعدم التكلف.

وصل الرجل إلى حجرة جانبية، وصلت إليهما همهماته، وصوت صبيٍ صغيرٍ يبدو أنه كان نائماً.. ووجودهما كان سبباً في إيقاظه.

أتى الرجل وجلس في الناحية المقابلة بجانب أدهم.. وجهه وديع، تملؤه السكينة والهدوء، كيف بهذه القسمات الهادئة إذا علمت باعتقال عائشة.. استفاقت من شرودها على صوته قائلاً:

-معذرة على سوء الاستقبال، زوجتي مريضة بالداخل، وصديقتكِ لا تعتني بنا جيداً، أوصيها علينا.. فخورٌ أنا بها جداً لولا تأخرها هذا، أقلقتني

عليها، ولم أبح بشيءٍ لوالدتها، لكن قلبي كاد أن يتوقف قلقاً، لماذا حتى لا تتصل لتخبرنا أنها بخير؟

حمداً لله أنني آثرت المجئ، كيف لهذه الأسرة لو علمت باعتقالها، ماذا لو أخبرت هذا الرجل بسجن ابنته.. من الواضح أنه سيصبح طريح الفراش هو الآخر.

جاء الأخ الأصغر واضعاً أكواباً من الشاي على صينيةٍ بها بعض النقوش البسيطة.. قدم الأكواب، ثم جلس بجانب أروى.. يبدو أن معركة الاستيقاظ لم تؤثر على طباعه.. قال الولد مقاطعاً كلام والده:

-عائشة حدثتني عنكِ كثيراً، رغم أنكِ لا تشبهيننا، لكنها تحبكِ، دائماً كانت تقول أنها تتمنى أن تراكِ محجبة قبل أن تموت.

تموت.. أيمكن أن تموت عائشة.. أيمكن أن تكون هذه هي النهاية؟

ظهرت الدهشة على وجه الرجل لعلمه أنها ليست محجبة، آثرت الحديث قبل أن تثور حفيظته ضدها.. توقعت أن تتغير ردة فعله عند علمه بتبرجها، لكن ابتسامته الودودة اتسعت أكثر.. بادرته قائلة:

-عائشة بخير، فقط سُرق هاتفها، ولم تستطع محادثتكم، ثم إنها تعمل إلى جانب دراستها، فلم تستطع المجئ.. لكنها أعطتني هذا المظروف، وأرادت مني أن أوصيك بالوالدة خيراً.. وأخبرتني أن بهذا المظروف ما يكفي للنفقة والعلاج هذا الشهر.. ثم نظرت إلى الولد الصغير وقالت له باسمة:

-ألزمتني أن أخبرك تحياتها، وأن أوصيك بأمك وأبيك خيراً، وألا تتوانى في دراستك.. كانت تكذب بكل ما أوتيت من صدقٍ!

تهيأت للانصراف.. لكنها تذكرت شيئاً:

-أخبرتني أنها تريد رقم أخيها الأكبر فلقد فقد مع ضياع الهاتف.

رفع الوالد رأسه ثم تساءل في شكٍ:

-ألم تخبركِ أننا لم نعلم وجهته بعد، أم تُراها تخيلت أنه في تلك الأيام القلائل أفصح عن مخبأه، أو جاء عائداً كي يرعى أبويه المسنين.

ازدردت ريقها في مرارة.. إذن لم يعلموا وجهته بعد.

ماهذا الوطن الذي يلفظ أبناءه.. شابٌ في مقتبل حياته، يفضل التغرب والهجرة على المكوث بجانب أبويه المريضين، يبدو أن الدافع كان أقوى، نظرت إلى أدهم كان يبدو متأثراً بكل شيءٍ.. ترك عمله الذي من أجله جاء، يكفيه هذا التأخير.

هبت واقفة، واعتذرت عن زيارتها التي جاءت على غير موعد، وعن ما سببته من إزعاج، رافقها الأب والابن حتى الباب، التفتت إلى الصبي أوصيك بالمذاكرة، انحنت لتكون بمستوى طوله ثم قالت متسائلة:

-صحيح، أخبرني ماذا تريد أن تصبح مستقبلاً؟

-ألم تخبركِ عائشة.. أنا القاضي محمد عاطف عبدالرحمن.

-قاضٍ !!

الدنيا تسخر من الكل، يريد أن يصبح قاضياً وهو لا يعلم أن أخته زج بها ظلماً وعدواناً في غياهب السجون.

بادرها قائلاً وهو يحرك عجلة السيارة مستعداً للقيادة :

-أخبريني أين صديقتكِ ؟

أغرورقت عيناها بالدموع، ولم تجب.

سألها مرة أخرى في تفهمٍ:-

-أهي مريضة؟

-كلا، إنها في السجن ثم أجهشت بالبكاء.

(٢)

مَن الإرهابي .... ؟

ظلت تنظر إليه في ضعفٍ ووهنٍ ثم استدارت خارجة دون سابق إنذارٍ، اتجهت رأساً إلى غرف العناية المركزة، حدقت بزجاج الغرفة كعادتها، تساقطت العبرات على وجنتيها، ظلت تراقب الأجهزة الموجودة بالغرفة، ثم اتجهت خارجة دون أن تنتظر حضور الطبيب الخاص كي تطلع على الحالة المرضية للوالدة.

كانت تشعر بأنها بحاجة إلى الدعم، غادرت المشفى ثم اتجهت إلى مسجد باريس الكبير، اتجهت إلى ركنها المفضل.. تعثرت في إحدى الجالسات، اعتذرت منها، وجلست بمكانها المعتاد، لم يكن المسجد هادئاً، كعادته كان يعج بكثير من الفرنسيات اللاتي جئن بدافع الفضول، ظلت تنظر إليهن الواحدة تلو الأخرى، حتى التقت عيناها بتلك التي تعثرت بها منذ قليلٍ، كانت فتاة شاحبة غير محجبة، لكنها تبدو مسلمة لا تعلو وجهها الدهشة من المسجد مثل الكثيرات.. جلست الفتاة بضع لحظاتٍ ثم انصرفت، ظلت نسيم جالسة حتى أُذن لصلاة العصر، صلته ثم انصرفت هي الأخرى.

فور وصولها إلى شقتها لاحظت بعض الجلبة في الشقة المقابلة، وأن الأنوار مضاءة.. لم تتبين ما الأمر؟، لكنها رأت صاحب العقار يقف بمنتصف الردهة، علمت أن المستأجر الجديد قد حضر.. ومن اختلاط الأصوات، علمت أن الساكنة فتاة، أغلقت باب شقتها في هدوءٍ.. عليها أن تنجز مهاماً كثيرة قبل حلول اليوم التالي، أهمها هو أن تبحث بغرفة والدتها لعلها تجد ما يجعلها تهتدي إلى جذورها المفقودة، هي تعلم أنها عربية الأصل، لكنها لا تدري إلى أي بلد تنتمي؟.. أعدت لنفسها فنجاناً من القهوة، ووضعت بعض قطع الكعك.

اتجهت إلى غرفة المعيشة، أدارت التلفاز كان العنوان المسيطر على الشاشة " ثورات الربيع العربي " انتبهت في وجلٍ، كانت تعلم أن الأوضاع غير مستقرة في البلاد العربية، وأن فكرة العودة إلى إحداها والعيش بها فكرة صعبة.. لكن الدافع لكل هذا أنها تود أن تعرف لأي بلدٍ تنتمي؟.. البلد التي قضت بها أمها طفولتها وصباها، وصدراً من شبابها، تود أن تعرف مَن أبوها؟.. تعلم جيداً أن أمها على قدرٍ من الدين والأخلاق، وتعلم أيضاً أنها لم تكن ابنة سفاحٍ.. وهذا ما أباحت به أمها.. لكن ما الدافع الذي حدا بها كي تأتي بطفلتها إلى هنا لتستقر طوال حياتها في بلدٍ لم تكن تنتمي إليه يوماً؟، هي تعلم قدراً كبيراً من اللغة العربية، لكنها لم تكن تميز في لهجة والدتها أنها تنتمي إلي بلدٍ معينٍ، أمها لم تكن تتحدث إلا بالفصحى، ظلت شاردة الذهن ثم قامت فجأة كي تجلب بعض الكتب من المكتبة.. فتحت بعض المواقع الإلكترونية، يجب أن تعلم قدراً كبيراً من المعلومات عن الدول العربية علها أن تجد بعض العادات التي كانت تقوم بها والدتها مسيطرة على دولة ما.

قرأت في تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ولكنها لم تهتدِ لشيءٍ، اتجهت إلى غرفة أمها، ظلت تبحث وتبحث.. لم تعثر على أيٍ من وثائق سفر أو شهادات.. وكأن أمها تعمدت أن تخفي كل شيءٍ قبل أن تمرَض.. أخذ منها الجهد مأخذه.

لم تشعر إلا في صباح اليوم التالي وهي جالسة القرفصاء على الأرض، ورأسها مائل على السرير.. أدت صلاتها، وتناولت فطورها على عجلٍ.. تذكرت أمر الساكنة الجديدة، قامت بتهذيب بعض الورود التي تعج بها شرفتها، ثم خطت على أحد البطاقات بعض الكلمات ختمتها، بـ " أتمنى لكِ إقامة طيبة بباريس" جارتكِ بالشقة المجاورة.

وضعت باقة الورد أمام باب الشقة المقابلة، ثم اتجهت إلى الجامعة مباشرة.

لم يتكلم أي منهما خلال الطريق، كان الوقت فجراً عندما طرقا أول شوارع القاهرة، لم ينجز أي عملٍ من الأعمال التي من أجلها جاء، لم يكن مستعداً الاستعداد الكامل لاجتماع اليوم، كل ما يود فعله الآن هو توصيلها لمنزلها.. ومن ثم يحاول أن يصلح الخلل الذي أصاب عمله، التفت إليها ليسألها عن أي الأماكن تسكن؟

كانت تبدو مستغرقة في النوم، تردد في إيقاظها.. ظل ينظر إليها للحظاتٍ.. كان الإعياء واضحاً على وجهها بشدة ويبدو أن الجهد أخذ منها مأخذه، يعلم أن لديها موعد مع الطائرة في الثامنة صباحاً، لن يضيرها النوم لساعةٍ أخرى.

عزم على عدم إيقاظها، يمكنه أن يذهب هو إلى البيت أولاً لاسيما وهو قريب منه، سيكلف أخاه ببعض الأعمال، ويأخذ هو بعض الوثائق التي يجب توقيعها قبل انعقاد الاجتماع، سيعتذر لأبيه بشأن فرع الإسكندرية.. إذن الخطوة القادمة هي البيت، ثم مهمة توصيلها لمنزلها، ومن ثم الذهاب للشركة.

اتخذ الطريق المؤدي إلى المنزل، ترك السيارة بحديقة الفيلا.. أملى على أخيه ما يجب فعله.. ووضع بعض الأوراق في حقيبته، اجتاز ممر الحديقة بخطوات واسعة، واتجه صوب السيارة بهدوءٍ حتى لا يوقظها فتنزعج لوجودها بحديقة بيته، ولكم تعاظمت دهشته عندما وجد السيارة فارغة وهي ليست بداخلها!!!

فور وصولها إلى الجامعة اتجهت لمتابعة حالة مرضاها الصحية.. ثم عرض التقاريرعلى ذاك البرونو المتعجرف، لا شك أنه لا يهتم بتلك الملفات الطبية، كل ما يهمه هو أن يجلدها بكلامه، ويقيم وضعها الديني والعربي..

أصعب نقطة تصل إليها عندما يصفها بالإرهابية، وتلتفت إليها كل الأنظار..تشعر وكأنها ارتكبت إثماً شنيعاً بعروبتها وإسلامها، ولكنها ككل مرةٍ تواسي نفسها بأن هذه هي آخر سنوات الجامعة، عدة أشهرٍ فقط وتنتهي هذه المعاناة.

قضت يومها في هدوءٍ.. لكن أتت اللحظة الحاسمة، لحظة إطلاعه على ملفها الطبي.. أو بالأحرى لحظة الجدال الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، لا هو الذي يقتنع ولا هو الذي يتركها ودينها.. اتجهت نحو القاعة بهدوءٍ، لم تكن صديقة لأحدٍ..علاقتها بزميلاتها سطحية باردة.. جلست في المكان المخصص لها، والذي تحمل رقمه، اكتمل عدد الطلاب.. خفق قلبها بشدة، وظهر على وجهها الاضطراب.. كانت تكرهه وتخشاه.

أمسك بالملف نظر إليه للحظاتٍ، ثم وضع بعض الكلمات في أماكن متفرقة.. وضع قلمه خلف أحد أذنيه، وكأن باقي التقرير لا يستحق القراءة، نظر إليها قائلاً:

-ها أين تخبئين سيفكِ؟

أجابته في حدةٍ:

-أي سيفٍ؟ حينما آتي إلى هنا لا أملك إلا معطفي، وأدواتي الطبية، أما عن السيف والرصاص وقنابل الغاز النووي فأسأل عنها أمريكا وإسرائيل .

-وما شأني أنا بأمريكا وإسرائيل، أنا أتحدث عن الإرهاب الذي يفرضه دينكِ ويطبقه العرب.

-أي إرهابٍ ذاك الذي تنعتنا به.. رغم أنه لا يوجد بلدٍ محتلٍ، وأهله يقتلون زوراً وبهتاناً إلا وكان بلد عربي مسلم، إن شئت فانظر إلى فلسطين والعراق وبورما والشيشان.. ماذا عن التدخل الأجنبي في سوريا وغيرها الكثير؟ أي إرهابٍ ذاك الذي تلصقه بي؟ ولا يوجد لديكم إلا مخططات تحاك ضد

مصر وسوريا وليبيا واليمن، حدثني عن بلدٍ عربي احتل بلداً أجنبياً أو غربياً واحداً، رفعت كتفيها وابتسمت قائلة في سخرية:-

-صدقني لن تجد.

-لهذا أنتم تقتصون من الأبرياء في عملياتٍ إرهابيةٍ دنيئةٍ.

-دكتور برونو، لسنا هنا للحديث في السياسة أو الإرهاب، أخبرتك كثيراً إن كنت لا ترغب في رؤيتي..أو أن حجابي يثير حفيظتك، فعليك أن تسمح لي بطلب النقل الذي عرضته عليك مراراً.. لا أدري ما السبب لرفضك رغم أني حاولت جاهدة التعلم تحت إشراف طبيبٍ آخر لكنك لم تسمح بذلك؟، ثم إني أخبرتك أن قدماي لم تطأ أرضاً عربياً من قبل، وأني فرنسية من الصميم مثلك تماماً.. وإن كنت تود أن تعقد مقارنة بين الأديان فعليك بكتب الكبار من رجالات الدين والمستشرقين، وليس بفتاة مثلي معلوماتها الدينية طفيفة جداً، لا تصلح لإقناع غير المسلمين بأن الاسلام هو دين السلام لا سيما إن كان المجادل أنت.

حملت ملفها دون استئذان، ودون حتى أن يضع توقيعه، ثم اتجهت رأساً إلى الباب، عازمة على الخروج من القاعة، في منتصف الممر، التفتت إليه قائلة:

-سأقدم طلب نقلي للممارسة تحت إشراف طبيبٍ آخر لإدارة الجامعة ما دمت لا ترغب على الموافقة، أرجوك أن تساعدني في هذا، ثم انصرفت.

-عم محمد، أين هي؟

-مَن تقصد يا بني؟

-الفتاة التي كانت في السيارة.

-أي سيارةٍ؟

-أكرمك الله انتبه إلي، كانت إحداهن جالسة في سيارتي، أين ذهبت؟

-لا أدري يا بني، فقط دخلت إلى غرفتي لأنزع السترة وأرتدي الجلباب، ولم أر أحداً.

اتجه صوب الشركة مباشرة، كان مشغولاً بها طوال الطريق، مَن هي؟ وأي شهامةٍ هذه التي تجعل فتاة تسافر إلى الإسكندرية قبل سفرها بساعاتٍ لتكذب تلك الكذبة البريئة علي هؤلاء الطيبين؟.. مَن هذه التي تملك بأس رجلٍ.. وشهامة شابٍ.. ورقة فتاةٍ؟.. هو الذي كان يرفض الزواج طيلة حياته.. ماذا حدث لينشغل عقله بفتاة لم يعرفها؟ بل والأسوء من هذا أن تختفي دون أن يعلم عنها شيئاً سوى اسمها، والمضحك المبكي أن يختفي الهاتف الذي هاتفت منه أباها.

أفاقت من نومها لتجد نفسها ما زالت في سيارته، تغلبت على ما تشعر به من صداعٍ وألمٍ في مفاصلها، ترجلت من السيارة، واتجهت نحو الفيلا التي تسكن.

كان وداعها لأبيها صامتاً حزيناً، أوصلها بنفسه إلى المطار.. لم يكف عن ترديد أن تذهب إلى السفارة أولاً، وأن تخبرهم بشأن دراستها، سيقومون هم بذلك، لن تعاني في البحث عن جامعة تدعم رسالتها، أخبرها أنه سيشتاقها كثيراً، وسيزورها عندما تهدأ مشاغله، حفزها على فكرة ألا تأخذ رسالتها أكثر

من عام.. وقبل أن تصعد إلى الطائرة أخبرها أنه سيحاول أن يساعد هؤلاء الذين تم القبض عليهم أثناء توزيعهم للمنشورات بالحرم الجامعي.

نظرت إليه في توسلٍ، قبلته وانصرفت حينها لم تكن تدري أن هناك هاتف لأحدهم يرن دون قصد في حقيبة يد بغرفتها.

حطت الطائرة على الأراضي الفرنسية، استلمت حقيبتها الوحيدة، واتجهت رأساً إلى السفارة، لم تكن زيارتها الأولى لباريس، لكن حتماً هذه المرة مختلفة عن ذي قبل، هذه المرة جاءت وحيدة لتكسب لقب تستطيع أن تدافع به عن قضية ترى أنها قضيتها شخصياً..أملت السائق عنوان السفارة .. كان لقاءً ناجحاً، شعرت أن الأمور تسير على ما يرام، حتى مشكلة السكن سيتكلفون بها، أخبروها أنه وقع الاختيارعلى شارع بالقرب من الجامعة، ثم إنه مكانٌ هادئٌ ومعظم ساكنيه من الطلاب، والأسر التي يدرس أبناؤها بالجامعة.

أملت على سائق التاكسي مرة أخرى العنوان الذي تقطن به.. وضعت متاعها، وأودعت ملابسها في خزانة الملابس، اطمأنت نفسها عندما ارتاحت إلى ألوان ورق الحائط والأثاث، من الواضح أنه ينِم عن ذوقٍ فرنسي راقٍ.

اتجهت إلى المطبخ، الثلاجة الفارغة لم تثر دهشتها.. تناولت كوباً من المياه، وآثرت أن تتجه إلى أحد أماكن بيع الأطعمة، يجب أن تتناول غداءها أولاً فهذا سيساعدها على إنجاز جولة سريعة بالمدينة.

أثناء تجوالها صادفت مسجد باريس الكبير، أصرت أن تدخله، أعجبها الطراز الشرقي الباهر الذي يميز مسجداً بقلب باريس، النساء يتوافدن بكثرة.. منهن مَن تمسك بأيديهن أطفالاً لم يتجاوزوا العاشرة.. الأمر بالنسبة إليهم كان مهيباً إلى أبعد حدٍ.. الدهشة تعلو وجوههم، في حين أن هناك أخريات بالمسجد مهمتهن هي الابتسام للوافدات فقط.

كانت تشعرها تلك الابتسامات بالطمأنينة التي هجرتها لأيامٍ منذ وفاة أمها، ثم لم تكد أن تتجاوز الأزمة حتى فوجئت باعتقال عائشة، اعتقالٍ كانت هى السبب فيه.. هي التي لم تصادق أحداً، دائماً تشعر أنها لا تنتمي إلى عالم أقاربها وأصدقاء والديها.. كانوا ينعتونها دائماً بالمتعجرفة، وكانت تستحق.. كثيراً ما كانت تشعر أن هذا الوسط الذي تحيا فيه، لم يبنَ إلا بأموال الشعب، ولم يرتفع إلا بالوقوف على أجسادهم، انتبهت من شرودها لتعثر إحداهن بها، لم تستطع العودة إلى ذكرياتها ثانية، قررت استكمال جولتها قبل أن تقرر العودة، لديها غداً يوم عملٍ شاقٍ بالجامعة.... مرة أخرى، التقت عيناها بالتي تعثرت بها، ابتسمت لها وانصرفت.

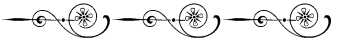

ذهبت إلى إدارة الجامعة للتثبت من أمر النقل، ولشد ما كانت خيبتها حينما أجابتها إحدى عاملات الإدارة قائلة:

-دكتور برونو صوفيو لم يسمح بالنقل.

-اتجهت إلى حجرة العناية المركزة، راقبت ذلك الجسد الهزيل الذي لا يوصله بالحياة سوى تلك الأجهزة، انتظرت وقت زيارة الطبيب، وجلست على أحد مقاعد الانتظار، آثرت أن تقضي الوقت في القراءة.. أخرجت كتاباً لكنها لم تعِ حرفاً مما قرأت.. كان ذهنها شارداً في حالة والدتها.. شعرت وكأن أحدهم يقف أمامها، رفعت عيناها عن الكتاب في بطءٍ، فوجدته هو ذاك الذي أخبرها أن أمها ليست أماً لها فقط، بل أماً لكل مسلمٍ في فرنسا، ابتسمت في هدوءٍ، بادرها قائلاً:

-كنت أنتظر منكِ اتصالاً، فلما لم تأتني به، آثرتُ أن آتيكِ أنا به، إنني أعمل بمعمل تحاليلٍ بالمشفى بالقسم المجاور لغرف العناية المركزة، سأكون بجانبكِ إذا لجأتِ إلي في أي وقتٍ.. استأذن منها ثم انصرف.

من الغريب أنها لم تعلم اسمه حتى الآن، بحثت عن الكارت الخاص به الذي وضعته بحقيبتها مسبقاً، نظرت إلى الاسم " إياد عاطف عبدالرحمن" تعلم أنه عربي الأصل، لكنها لم تعلم إلى أي بلدٍ ينتمي؟..ماذا لو كانا ينتميانِ إلى بلدٍ واحدةٍ؟

سمعت دفع خطواتٍ تقترب، كان الطبيب المختص.. وقعت على الحالة الصحية لأمها.. لم يبدِ أي تحسنٍ.. رحل الطبيب وظلت محدقة بتلك المرأة الراقدة دون وعي، في يوم ما كانت تتقد قوة ونشاطاً.. علمتها الصبر على المصائب، لكنها لم تتوقع أن تكون المصيبة رحيلها هي، علمتها الدين في بلدٍ لا يفتقر إلا للدين.. قست عليها بلدها فوجدت مرارة الغربةٍ أقل قسوةٍ!

تعلم أن دافع الهروب كان أكبر من دافع الاستقرار بالوطن، لكن أي وطنٍ ذاك الذي يلفظ امرأة في شهور الحمل الأولى وكأنه ضاق ذرعاً بمولدة أخرى فلم تجد أمامها إلا أن تضعها في الأراضي الفرنسية؟ .. من ثم تجعل فرنسا مستقراً لها.. أي قوةٍ جعلتها تتخلى عن الأهل والوطن والزوج لتعيش طريدة منبوذة في بلدٍ لم يفتح أحضانه لها يوماً؟.

رغم أنها تملك من العمر أربعة وعشرين عاماً قضتها كلها بفرنسا إلا أنها لا تزال ترى نفسها دخيلة على هذا المجتمع، نصف لم يتقبلها، والنصف الآخر يتجاهلها كأنها مرض الاقتراب منه معدٍ.. تنهدت في ألمٍ ثم حملت حقيبتها ورحلت.

لفت نظرها وجود علبة مغلفة بورق الهدايا أمام الباب، كانت تشعر أنها تخص الساكنة الجديدة وبالفعل صدق حدسها، قرأت البطاقة الموجودة مع العلبة، كانت دعوة لتناول القهوة معها في السادسة مساءً.

أزالت ورقة الهدايا، كانت الهدية عبارة عن علبة من قطع الشوكولاتة، ابتسمت.. وقالت وكأنها تحادث نفسها:

- يبدو أننا سنصير أصدقاء.

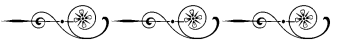

-لم يصلني ردك بعد، ماذا قررت بشأن الزواج.. تركت لك مهلة يومين لكنك لم تخبرني برأيك حتى الآن.. أدهم أنت تعلم أباك جيداً، وتعلم جيداً ماذا يفعل حينما يعقد العزم على أمرٍ ما، سأكلم والد الفتاة الليلة كن مستعداً.

-الليلة ؟!

-نعم الليلة منذ أن كنت في أوائل العشرينات، وأنا أمنحك فرصة تحديد الموعد بنفسك، لكنك لم تفعل، الآن سأحدده أنا بنفسي، فقط اجلس مع الفتاة أنا متأكد أنها ستثيرإعجابك فهي تستحق، ثم إن طباعها تشبهك تماماً.. وعلى مستوى عقلي وفكري راقٍ بالإضافة أنها ابنة الوزير" محمود الشرقاوي " علم ونسب وأخلاق.

وإذا لم ترفيها زوجتك فلن أجبرك عليها.

-أنا أقدر مجهودك، وأعلم أنك على حقٍ، وأثق باختيارك يا أبي، لكن دعني أسبوعاً واحداً وسآتي إليك خاضعاً لما تريد.

-حسناً، تركتك أعواماً، ليس من الصعب أن أضيف إلى تلك الأعوام أسبوعاً واحداً، لكن أيمكن أن أعلم السبب الذي من أجله تطلب هذه المهلة؟.

-تقريباً رأيي استقرعلى إحداهن.. ثم انصرف.

جلس خلف مكتبه، أمسك رأسه بيديه في محاولةٍ لتفادي آثار الصداع الذي أصاب رأسه.. أسبوع واحد فقط يجب أن يعلم فيه مَن هي، ومَن تكون؟.

راوده شعورٌ بأنها قد تكون وهماً صوره له خياله، وليست واقعاً، تلك التي انشق عنها الطريق فجأة، ثم اختفت من قلب السيارة فجأة وكأنها لم تكن.. أيمكن أن تكون طيفٌ أو حلمٌ داعب خياله؟

كاد أن يركن إلى هذا الرأي لولا تذكره لأهل هذا المنزل الذي زاروه.. يعلم أنها مغادرة إلى باريس، لكنه لم يعلم كم المدة التي ستقضيها هناك، أخبرت الرجل المكفوف وهي تناوله المظروف أن به أموالاً تكفي النفقة والدواء لمدة شهر.

ماذا لو كان غير ذلك حتى لا يشك بالأمر.. أخذ نفساً عميقاً ثم اتجه إلى غرفة أخيه.

طرق بابها ثم دخل.

-أأخبرك أبوك؟

قالها دون أن يرفع عينيه عن أوراقه.

-نعم، أخبرني.

-إذن سيحادث والد الفتاة الليلة؟

-كلا بعد أسبوع .

نظر إليه في دهشةٍ قائلاً:

ما الفارق الليلة أم بعد أسبوع؟

-أنت لن تفهم.

-إذن عليك إفهامي، بالمناسبة رأيت الفتاة من قبل.. تبدو فتاة طيبة، رائعة في كل شيءٍ، ثم إنها شبيهة بك في كل تصرفاتها، أعتقد أن والدك أخبرك بذلك.

-نعم، أخبرني.

-إذن ما المانع، اجلس معها واستمع إليها، أو اذهب إلى مكان دراستها أو في النادي، إذا أردت ألا يكون الأمر رسمياً، وإذا لم ترتوافق بينكما، فلن يجبرك أحد على الزواج منها، مع أنني واثقٌ أنك بمجرد أن تراها سيحدث هذا التوافق.. ثم غمز بعينيه.

تناول أدهم أحد الأقلام وقذف به في وجهه قائلاً:

-ألن تكف عن هراء الصبيان هذا؟

-نعم، لن أكف؛ إنني مراهق وسأظل هكذا إلى أن أموت.. ثم اتبعها بضحكة استهزائية.

ضحك أدهم على هذا الجو الطفولي العابث الذي يثيره أخوه دائماً، حتى في أحلك اللحظات.

-أدهم أخبرني ماذا بك منذ أن عدت من الإسكندرية، وأنت لست بحالتك الطبيعية، ماذا هناك؟

-لا شيءَ، مشاغل العمل فحسب.

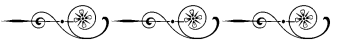

(٣)

أختاً لكِ

في السادسة مساءً طرقت باب الشقة المجاورة، وما إن فتح الباب حتى تبادلا الابتسامات التي تنم عن الاستغراب والدهشة، وبعد لحظاتٍ من التعارف، كانت كل منهما تحكي حكايتها للأخرى، شعرا وكأن المصائب قد وحدتهن، الأولى تدافع عن أحد الأبرياء الذين أصبحوا ضحية للنظام الفاسد والجامعات الفاسدة، لا يدرون مَن الفاعل الحقيقي لكل وقائع الإرهاب؟، فكان لا بد أن يدفع الثمن هؤلاء.

القانون لم تعد مهنته أن يبحث عن العدل ويحققه، بل مهنته أن يدين الأبرياء حتى يظهر الفاعل الحقيقي، وإن لم يظهر فعلى أرواحهم السلام.

أما الأخرى لا تعرف مَن هي ولا من أبوها، ولا لأي بلِد تنتمي؟، هي فقط تعلم أنها ابنة لتلك الراقدة في المستشفى على قيد سنتيمترات من الموت، خانتها الظروف وداهمتها الغيبوبة قبل أن تبوح بسرٍ لطالما وعدتها أنها ستخبرها إياه عندما يحين الوقت.. لم يحن الوقت بعد، لكن الخوف كل الخوف أن يحين وقت صعود الروح قبل معرفة السر، حينها لن تودع أماً فقط، بل ستودع العالم أجمع في شخص هذه السيدة، ختمت كلامها بدمعة ثم ابتسمت قائلة:

-الوقت تأخر كلتانا عندها جامعة غداً، ما رأيكِ أن نذهب سوياً؟

-إذن اتفقنا.

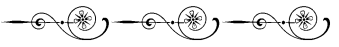

تمضي الأيام دون أن تحمل لأحد المزيد، تكرار ممل لنفس العادات اليومية والتفاصيل، اللهم إلا إذا كان هناك المزيد من البؤس لتلك الراقدة على السرير الأبيض، حالتها دائماً في تأخرٍ، دون أن يبدو أن هناك أي تباشير للتقدم في حالتها الصحية.

كانت ابنتها توقع على تلك التقارير الطبية في صبرٍ وجلدٍ على أملٍ أن تنقشع هذه الغمة، كانت تعلم أن أشد ساعات الليل ظلمة هي تلك الساعة التي تسبق الفجر، كانت تؤمن بأنه إذا ازداد سواد الليل فإنه سينقشع، وإذا اشتد الحبل واشتد فأنه سينقطع.

كانتا عائدتين من الجامعة بعد أن قامت أروى لأول مرة بزيارة والدة نسيم، كانت تشد على يديها بقوة كنوعٍ من المؤازرة، طوال الطريق وهي تحدثها عن الصبر، صعدتا السلم وقبل أن تنصرف كلٌ منهما إلى شقتها،أخبرتها أروى أنها ستعد طعام الغداء، وستتناولانه سوياً، عليها أن تذهب لتبدل ملابسها، وتعود ريثما ينضج الطعام.

ذهبت إلى شقتها عليها أن تستعد لاختبار الغد، حمداً لله أنه لن يكون شفهياً وإلا لأوسعها جلداً بسيل من كلماته اللامتناهية، عليها أن تستعد، هي تعلم أنها ماهرة بالطب، وتعتقد أنه يعلم ذلك، لكنه يصر على أن يجعلها لا تساوي شيئاً في عداد الأطباء، ليس لشيءٍ سوى لأنها مسلمة ترتدي الحجاب.

وضعت الكتب أمامها، ظلت تراجع دروسها في اندماجٍ لم يفصلها عنه سوى صوت هاتفها، كانت تعلم أن المتصل بالتأكيد لن يكون سوى أروى.

-السلام عليكم.

-وعليكم السلام.. أين أنتِ لم تتأخرين دائماً هكذا؟

-كنت أنهي بعض الدروس، آتية حالاً إليكِ.

-حسناً، لكن لا تنسِي أن تتصلي بالمشفى، وتطلبي غرفة لمريضين.

لمَ؟

ألم أخبركِ أن هذه المرة الأولى التي أنجز فيها طعام وبمفردي.

قالت باسمة:

- وأعتقد أنها الأخيرة بإذن الله.

-في انتظاركِ، ثم وضعت سماعة الهاتف.

أكلتا سوياً تكلمتا في أشياء كثيرة، وأطلقتا بعض الضحكات والذكريات، اتبعتها نسيم:

-كنت أتمنى لو أن أمي لا تزال بصحةٍ جيدةٍ .. كانت ستغمرها السعادة، عندما كنا نقابل إحدى العربيات بالمسجد، كنت أشعر وكأنها التقت بروحٍ أخرى تشبهها، كانت تناديني وهي منتشية لأتعرف عليها وكأنها خالة أوعمة وليست مجرد امرأة قابلناها منذ دقائق وسنفارقها بعد دقائق !!!

-تصوري ماذا لو التقيت بكِ وعلمت أنكِ ستجاورينها عاماً بأكمله، على الأقل كنت سأعلم من تعابيروجهها هل أنا مصرية فتتجه أفكاري إلى مصر، أم ستبدو على ملامحها اللامبالاة فتنصرف أفكاري إلى البلاد العربية الأخرى عدا مصر.

-دعكِ مني، ماذا عن صديقتكِ ألم تعلمي عنها شيئاً حتى الآن؟

-بلى، ولن أعلم، هي كغيرها من المعتقلين لن تتجه إليهم الأنظار لا سيما أولئك الفقراء الذين لا يملكون مالاً ولا سلطة، لكنني أصبر نفسي بعد حصولي على الدكتوراة ستكون أول أولوياتي الدفاع عن أولئك المنكوبين الذين لا يشقى لشقائهم أحد، ولا يدافع عنهم أحد، سأستميت أنا في الدفاع عنهم ولو كلفني ذلك حياتي.

-وماذا عن أبيكِ؟

أنا لا أخشى شيئاً، لكني أخشى على أبي منهم، أخشى أن يتأثرعمله، أو مركزه لخطوتي تلك، وقتها لن أسامح نفسي، فقط أريد أن أحارب الظلم والفساد، دون أن يحاربوا هم أبي بي.

ما لكِ تتحدثين هكذا وكأن القانون معطل به العمل في بلدكِ، أليست مصر أماً للعالم؟

بلى، مصر أم العالم، لكنها ليست أماً للمصريين!

-سألتها في دهشةٍ:

-وماذا عن القانون؟!

-بالفعل القانون في بلدي معطل العمل به، ولو كان سارياً لما جئت أطلب دراسته هنا.

ثم أردفت في أسىً:

-القانون في بلدي لا يسري إلا على الضعفاء، أما الكبار فهم الذين يحركونه ويضعونه في الموضع الذي يريدون، المهم أن يكون هذا الموضع بعيداً عنهم حتى لا تفوح رائحة جرائمهم العفنة.

-إذن ماذا حصدتم من ثورتكم، ألم تقم في بلدكم ثورة من أجل هذا؟

-لم نحصد منها شيئاً، فقط حصدت هي أرواح الأبرياء الذين لم يكن لهم جمل ولا ناقة.

ثم سكتت، نظرت نسيم إلى التلفاز وهى شاردة الذهن، ماذا لو كانت مصرية هي الأخرى وقررت العيش بمصر، هل تستطيع أن تواصل حياتها في هذا البلد الفوضوي الذي لا يطبق قانونه إلا على فقرائه.

لا أتخيل بلداً واحداً في العالم لا يحاكم مجرميه، بل ويزج بأبريائه في السجون، هنا " برونو" لم يستطع أن يؤذيني بشيءٍ إلا بجداله العقيم، كيف لو كان كل هذا يحدث ببلد كمصر، هل كنت سأتخطى سنوات الدراسة

في سهولةٍ ويسرٍ كما فعلت هنا، أم كان سينتقم مني شر انتقامٍ بحرماني من النجاح دون أن يحاسبه على فعله أحد.

تنهدت في أسىً وكأنها تخرج كل ما سببته تلك الأفكار من حشرجة بصدرها، ثم قالت بصوتٍ مسموعٍ:

-" يبدو أننا كلنا مغتربون في أرض الوطن "

أنا وأنتِ وأمى و عائشة.. كلنا كذلك.

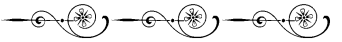

لم يمر أسبوع واحد بل مر أكثر من شهرين، وأنت لا زلت مكانك، الأمر بالنسبة إلي خرج عن سيطرتي، لم أعد احتمل رؤيتك هكذا، تنتظر ماذا حتى تتزوج، نصف شباب مصر يحلمون بربع إمكاناتك فقط، طلبت رؤيتك لأخبرك فحسب، أما عن الفتاة فقد حدثتك عنها مسبقاً سأحدد موعداً مع أبيها الليلة.

ثم أردف قائلاً:

-أود الملف الخاص بفرع الإسكندرية، وهل قرر مجلس إدارة الشركة تلقي الشحنة الفرنسية أم لا، اعقد اجتماعاً عاجلاً، ثم أخبرني بالأمر.

انصرف في صمتٍ، اتخذ سيارته في طريق الشركة، نعم لابد أن يذهب إلى الإسكندرية، عليه أن يذهب أولاً لتلك الأسرة، من الواضح أنه كانت تربطها علاقة وثيقة بصديقتها تلك، وإلا لما قررت زيارتهم قبل سفرها بساعاتٍ، ثم إنه من الممكن أن تكون الفتاة خرجت من السجن وتساعدني في الوصول إليها.

أوقف سيارته أمام الشركة، اتجه رأساً إلى مكتب أخيه، أخبره بأمر الاجتماع، ثم بقرار سفره إلى الإسكندرية.. لم يعلق أخوه على ما قاله بشأن العمل، وعلت على وجهه ابتسامة هزلية، ثم أردف متسائلاً:

-أدهم أخبرني مَن هذه التي تضحي بابنة الوزير من أجلها؟ وهل لسفرك إلى الإسكندرية علاقة بالأمر؟ منذ الزيارة السابقة وأنا أشعر أن في الأمر خطباً ما، ثم إنني لا أستطيع أن أتخيل أدهم بيه النشار العاقل الرزين، يعشق إحداهن، وينتظر منها نظرة رضا، وكلمة ود، ثم انفجر ضاحكاً وعيناه تدمعان من الضحك.

نظر إليه أدهم شذراً، رفع حاجباً وأرخى الآخر، ثم قال في صرامةٍ:

- افعل ما أمرتك به، من الممكن ألا آتي إلا على موعد الاجتماع غداً.. ثم انصرف.

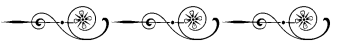

على أعتاب الجامعة قالت أروى:

-نتقابل مساءً، كان الله في عونك، ثم اتسعت ابتسامتها قائلةً سأدعو لكِ.

-أهذا وقت مزاحٍ، علي كلٍ، يتقبل الله منكِ.

رغم كل هذا الرعب إلا أنه لم يعد كالسابق، وكأن الله أزاح غمته عنها، وكفاها شره، تمتمت قائلة يارب أدم عليه هذا الحال حتى أنتهي من هذه السنة.. اتجهت إلى مكانها المخصص في انتظار حضوره، توافد الطلاب على القاعة، قامت باسترجاع بعض الدروس ريثما يكتمل الحضور، استفاقت من شرودها على صوتٍ أرعبها آتياً من أول القاعة:-

-نسيييييييييييييييم.. أخرجي لا أريد أن أراكِ في الجامعة ثانية..بل في فرنسا كلها، باريس ليست مأوى للإرهابيين أمثالكِ تحت قناع البراءة والهدوء.

لم تستوعب ما الذي يحدث، ظلت تنظر إليه في عدم استيعاب، وجميع الأنظار متعلقة بها.. منهم المشفق، ومنهم الشامت، لم تحملها قدماها للوقوف.. ظلت جالسة والدموع متجمعة في مقلتيها إلى أن بادرها قائلاً:

-قلتُ: اخرجي ولا تعودي أبداً.

تحاملت على نفسها وخرجت، أول ما فعلته كان الذهاب إلى غرفة والدتها، كانت الدموع تنهمر من مقلتيها كرشاشات المياه، وقفت بجانب سريرها، ثم ركعت على ركبتيها قائلة:

-أخبريني مَن أنا؟، لم تعد فرنسا وطناً لي، دائماً أراني دخيلة عليهم، أرجوكِ استيقظي لم أعد أحتمل الوحدة في هذا العالم.. أنا ضعيفة أضعف مما تتخيلين .

كانت تهز الفراش بعنف مما أثار ريبة الممرضات.. ذهبن ليأخذنها فتهاوت بين أيديهن جثة هامدة.

ترجل من السيارة في نفس المكان الذي وقف فيه معها من قبل، الفارق أنها لم تكن موجودة، اجتاز السلم بخطوات واسعة.. توقف أمام الشقة.. طرق الباب ولم يجب أحد.. كان يعلم أن الأم مريضة والأب كفيف والابن قد لا يكون هنا، لن يضره بعض الانتظار، لكن انتظاره طال وطال إلى أن فتح باب الشقة المجاورة..أطلت عليه امرأة يبدو أنها كانت ناعسة ولكن رنينه أزعجها، سألته في ريبة :

-مَن تريد؟.. ساكنوا هذه الشقة رحلوا منذ شهرونصف.

فغر فاه مندهشاً وقال مردداً:

-رحلوا؟!!

نظرت إليه في تحفظٍ، يبدو أنها تستغرب وقوف شخصٍ بهندامه هذا.. أمام شقة هؤلاء البسطاء.. سألها في رجاءٍ:

-ألا تعلمين إلى أين انصرفوا؟

-كلا، يمكنك أن تسأل صاحب العمارة.. هو الذي قام بترحيلهم.

-قام بترحيلهم.. لمَ؟

- لقد تأخروا في دفع الإيجار، فضاق بهم ذرعاً.. شقة المالك بالطابق الثاني أيمكنني الانصراف؟

-نعم.. شكراً جزيلاً لكِ.

انطلق عائداً إلى القاهرة.. كل محاولاته باءت بالفشل، رجع بخفي حنين كما يقولون.. التقى بوالده في شرفة الفيلا، ألقى عليه التحية ثم أتبعها:

-أبلغ والد العروس يا أبي أنني مستعد .

استنكر والده حاله ثم سأله في استغرابٍ:

- أخبرتني اليوم عندما حادثتك بهذا الأمر أنك لست مستعداً.. ما الذي حدث؟

-لا شيء.. لكنني مستعد الآن.

فتحت عينيها في إعياء متسائلة، أين أنا؟

-أنت هنا بالمشفى.. احتضنت يدها بين كفيها وقالت في هدوءٍ:

- لا تقلقي أنا معكِ.

-ما الذي حدث؟

-لا شيءَ فقط منذ أن وجدت أختاً لكِ وأنتِ تتدللين عليها.

ابتسمت في إعياءٍ وقالت:

لقد تذكرت، هل أمي بخير؟

-نعم.. وأنتِ أيضاً بخير.. ستغادرين المشفى الليلة.. ثم قالت في إصرارٍ:

- لقد علمت كل شيءٍ ويمكنني أن أساعدكِ في التخلص من ذاك العنصري المتعجرف، بل منحكِ تعويضاً عن الضرر الأدبي والنفسي الذي سببه لكِ أمام بقية زملائكِ، بل أخطر من ذلك يمكنني أن أوجه له تهمة ازدراء الأديان.

-لا.. لا تفعلي، لقد صبرت أعواماً ليست هناك مشكلة فى أن يزيدوا عاماً.

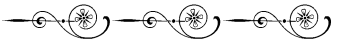

-أدهم أخبرني عن ماذا أسفر الاجتماع؟

-هناك تراجع بأحد أفرع الشركة تحديداً بفرع السويس.. لكنني سأسافر غداً لأتدارك هذا الأمر، وأحمد سيسافر إلى باريس بداية من الأسبوع المقبل.. أما عدا ذلك فالأمور تسير على ما يرام.. أهناك شيءٌ آخر؟

-كلا، فقط أردت أن أخبرك أن الفتاة التي كنت أريدها عروساً لك سافرت منذ فترة لاستكمال دراستها بالخارج.. لقد سئمت منك، افعل ما تريد.. يمكنك الانصراف .

تنهد في راحةٍ، ولم يستطع أن يخفى ابتسامة تلألأت على شفتيه لكنه تداركها بقبلة على يد أبيه أتبعها قائلاً:-

-لا تقلق يا أبي سأحاول جاهداً أن أرضيك.. ثم انصرف.

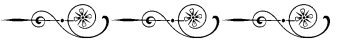

-نسيم أتعلمين سبب طردكِ من القاعة؟

-كلا، ماهو؟

-انفجار مفاجئ.. راح ضحيته الكثير من الأبرياء.

-وما شأني أنا بذلك؟

تنهدت في مرارةٍ قائلة:

-لا شأن لكِ بذلك سوى أن أحد الانتحاريين كان يحمل بطاقة هوية مصرية، والآخر سوري الجنسية.

-لم تنبس ببنت شفة.

آثرت أن تمكث باقي الأسبوع في البيت كفترة نقاهة.. لا تدري هل هذا القرار لترتيح أعصابها أم هروباً وخوفاً منه.. استفاقت من شرودها على صوتِ هاتف أروى.

-كيف حالك يا أبي اشتقت إليك.

-بخير يا حبيبتي لا ينقصني إلا أنتِ.

-لم يبق لي هنا إلا القليل.. أبي ألم تعلم شيئاً عن عائشة؟

-الأمر معقد يا ابنتي، الوطن في مرحلة انتقالية حرجة، وقضيتها ليست بالسهلة أو الهينة، لكنى أفعل ما في وسعي.. في رعاية الله، أقبلكِ.

انتهت المكالمة، ظلت شاردة لا تدري في أي شيءٍ تفكر، أفي السجينة أم في أهلها أم في أخيها الذي اختفى هو الآخر وكأن الأرض ابتلعته، تراه ما زال حيا؟

حلقت الطائرة على الأراضي الفرنسية، لا يدري لما يشعر أن هناك شيئاً غريباً سيحدث.. إحساس عجيب ساوره منذ أن وضع أول قدمٍ في الطائرة، حاول الانشغال بقراءة بعض المجلات الموجودة بجانبه لكنه لم يعِ حرفاً مما قرأ.. أغلق المجلة التي كانت بيديه ثم عاد إلى شروده.. ترى ما الذي سيحدث؟

انتبه وعجلات الطائرة تضرب أرض المطار، وضع يده على رأسه في محاولة منه لإيقاف الصداع الذي بدأ ينتشر برأسه، أشغلته إجراءات أمن المطارعن شعوره الغريب ذاك.

طمأن أخاه على وصوله، وقاما بمراجعة أمور الشحنة المطلوبة معاً، واتجه إلى غرفته بالفندق.. اليوم فقط راحة ومن الغد سيبدأ العمل.

(٤)

متطفلٌ

-انقضى أسبوع كامل على مكوثكِ بالمنزل..ألم يحن الوقت لتذهبي إلى الجامعة؟

هزت رأسها في استهتارٍ وكأن الأمر لا يعنيها.

-لم يبق الكثير على اختباراتكِ.. لا تتركي له لذة الانتصار عليكِ، ثم أردفت في عصبية:

-تفجير حدث لا ناقة لكِ فيه ولا جمل، لماذا تختبئين وكأنكِ الفاعل؟ استعدي سنذهب للجامعة غداً.

همت أن تتكلم رافضة، بادرتها أروى قائلة:

-ليس هناك مجال للرفض.. استعدي نلتقي في الغد.

ذهبتا سوياً إلى الجامعة، انفصلت عنها عند مبنى كلية الطب، ربطت أروى على كتفها في محاولةٍ منها لدعمها، تعلم ما هي مقبلة عليه، ماذا لو طردها مرة أخرى ذلك الحقير؟

أما نسيم فتباطأت خطاها.. وخفق قلبها بشدة، تعلم أن الأنظار ستكون موجهة إليها، ولا مناصَ من ذلك.. ستكون محط أنظار المتفرجين.. انتبهت من شرودها فجأة على صوت سيارة مسرعة، ورشاشات من المياه تنطلق في وجهها وملابسها، وكأنها خارجة للتو من المسبح أو ما شابه.

وقفت في ذهولٍ لا تدري ما العمل؟ هل عليها العودة أو البقاء؟.. في هذا الوقت تحديداً كانت ضعيفة للغاية، مرهفة الحس أقل شيءٍ يمكن أن يبكيها.. وقفت والدموع على أعتاب عينيها لترى تلك السيارة التي تسببت فيما حدث عائدة للخلف.

ترجل منها شخصٌ يبدو أنه في منتصف العشرينات أو أكبر بقليل.. بادرها بكلمات الأسف والاعتذار.. لم يكن يعنيها اعتذاره في شيءٍ فقد حدث ما حدث، تركته يتحدث وانصرفت.. تعلم أن ذلك لا يليق.. لكنها لم تعد تحتمل كلمات الاعتذار، ونظرات الشفقة من أحد.

آثرت أن تجلس في حديقة الجامعة، ريثما تجف ملابسها.. ليست هناك مشكلة في أن تحضر المحاضرة من نصفها الأخير، قليلٌ من التأخير لن يضير.

جلست بعض الوقت شاردة الذهن، ثم أخرجت من حقيبتها كتاباً لتقطع به المرور البطيء للوقت .. كان الكتاب يحمل عنوان "الإسلام السياسي والمعركة القادمة ".. شعرت وكأن أحداً ما يقف أمامها، رفعت عينيها عن الكتاب في بطءٍ.. وجدته هو وعلى شفتيه ابتسامة ودودة، بادرها قائلاً:

لمَ لم تتقبلي اعتذاري في المرة السابقة؟ آثرتُ ألا أنصرف إلا وأنتِ عني راضية.

علت شفتيها ابتسامة صفراء ثم قالت:

-أنا راضية.

ثم حولت نظرها عنه وأمسكت بالكتاب ثانية.. لم تكن في مزاجٍ رائقٍ للحديث مع أحد لكنه سألها مرة أخرى

-قبل أن انصرف، أتسمحين لي بسؤالٍ؟

-تفضل.

-لمَ تقرأين مثل هذا الكتاب؟ أعتقد أن المكان غير ملائم، ولا حتى الوقت.. الأنظار كلها تتجه إلى أن الإرهاب لا يخرج إلا من الإسلاميين.

رفعت حاجبها في استنكارٍ.. يكفيها ما هي فيه.

نظرت إليه في ازدراءٍ لم تنطق.. ومن ثم تحولت إلى كتابها ثانية.

-معذرة، لم أقصد أن أزعجكِ.

لا عليك.. فقط قبل أن تبدي رأيك في كتاب ما، أو كاتب ما يجب أن تكون على علم بما يحوي الكتاب، وبمن يكون الكاتب.

علت وجهه ابتسامة ثم قال مردداً بينه وبين نفسه:-

-وبمَن يكون الكاتب؟!

-ماذا تعرفين أنتِ عن الكاتب؟

-أهو اختبار إذن؟

كلا، فقط أردت أن استفد من معلوماتكِ.

-وهل هذا تهكم أم سخرية؟

-لا هذا ولا ذاك.. منذ دقائق أخبرتني أنه من المحتم علي قبل أن أبدي رأيي في كتاب يجب أن أكون على علمٍ بما يحويه هذا الكتاب.. وعلى علمٍ بشخص كاتبه.. إذن أخبريني أنتِ.

-لكني لم أبدي رأيي، أنت الذي فعلت.. علي كلٍ الكتاب يتحدث عن الحروب والتحامل الغربي على الإسلام من وجهة نظر الكاتب، وأنا أوفقه فيها، ثم يتطرق إلى الحديث عن خطر فئة علمانية تحصر الدين في الصلاة والمسجد، وفئةٍ أخرى تحصرالدين في القميص والسواك وكأن الدين لا هم له إلا هذا.

-وما رأيك أنتِ في هذه الفرق إلى أي فرقة تنتمين؟

-لا هذه ولا تلك.. إن كنت سأنتمي لجماعةٍ يوماً ما فجماعتي هي جماعة المسلمين.. سئمت المسميات، سئمت الفرقة والنزاع بين هذه الفرق، أنا مسلمة وكفى.

-أحسنتِ لكن بالتأكيد هناك شخص تركنين إلى كلامه أو هو بمثابة قدوة لكِ تؤمنين بقوله في ظل هذا التشتت والنزاع في الأقوال والأفعال.. مَن هو؟

-قدوتي هو " محمد صلي الله عليه وسلم " أما ما عدا هذا فكلٌ يؤخذ من قوله ويرد، جماعتي هي جماعة المسلمين وقدوتي هو رسول الله.

-أحسنتِ، حُق لي أن أصافحكِ.. ثم مد يده لها مصافحاً.

سألته في ريبة:-

-أمسلم أنت؟

-نعم!

-وتصافح النساء؟!

نظرت إلى ساعتها ثم هبت واقفة.. بادرته قائلة:

-أيمكنني الانصراف؟

-تفضلى.

بمجرد أن حولت إليه ظهرها لم تستطع أن تخفي ابتسامتها.. كان حديثاً شيقاً، على الأقل لم يعنفها ولم يعترض.. دقائق قليلة فصلتها عن واقعها، عن المأساة، عن عودتها للجامعة.

لم يعد يفصلها عن قاعة المحاضرات سوى أمتار قليلة.. اجتازتها بخطوات بطيئة.. تمتمت حامدة ربها على عدم وجوده.. جلست في مكانها المعتاد في انتظار الكارثة أن تحل.. ترى ما الذي سيفعله إن رآها؟ ألم يحذرها من قبل؟ ألم يطلب منها عدم تواجدها في محاضراته بل حتى في الحرم الجامعي

كله؟، ليته يدخل ويمنعها من الحضور، هذا أهون من العذاب النفسي الذي تلاقيه الآن.

الانتظار قبيح، قبيح للغاية، تذكرت رأي أمها في الانتظار، ابتسمت في مرارةٍ ثم رددته بصوت مسموع وكأنها تحادث نفسها

"انتظار البلاء أسوأ من وقوعه وانتظار الفرح أجمل من يوم الفرح نفسه "

صوت جرس المحاضرات أعادها إلى واقعها، بدأ قلبها يخفق بشدة، ظلت تفرك يديها بعصبية وأنظارها معلقة بالباب كأنها تنظر إلى الداخل منه في توسلٍ ألا يفعل بها ما يفعل دائماً، ولكنها كانت المفاجأة.. لم يكن الداخل دكتور بورنو وحده بل كان معه هو.. ذاك الذي أغرقها بالماء منذ ساعة واحدة!!

هناك في غرفة على سطح أحد المباني يرقد شيخ كفيف قد فعل به المرض ما فعل.. وترقد إلى جانبه مريضة منذ أكثر من ستِ سنوات وكأنها في صراع مع الزمن والمرض أيضاً سألته في وهنٍ:

-ألم أقل لك إن قلبي يحدثني أن عائشة أصابها مكروه، عائشة تعلم بملكيتنا لهذه الغرفة منذ أن كنا نعيش بها منذ خمسة عشرعاماً.. مضى على غيابها عدة أشهر، لماذا لم تعد إذن؟ المشكلة ليست مشكلة عمل.. تنهدت تنهيدة عميقة ثم أتبعتها بقولها: ألم يكفها أخوها الذي لم نعد نعلم عنه شيئاً؟ أتراه مات غرقاً أو أصبح طبيباً ماهراً؟ أو تراه تزوج وأنسته زوجته وأبناءه أمه وأباه؟.. ثم قالت في محاولة لمواساة نفسها:

-كلا، لو أصبح أباً لأتى.. لو عرف معنى الأبوة لأشفق علينا.

تنهد الشيخ ثم رفع بصره إلى السماء، وكأنه نسي أنه كفيف البصر ثم قال في رجاءٍ:

{ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ }[1]

-لا يؤلمني رحيل إياد وعائشة قدر ما يؤلمني ترك محمد للمدرسة ليوفر لنا لقمة العيش، وكأننا أنجبناه ليعيننا نحن على الحياة، لا لنعينه نحن على الحياة.

-أخشى عليه، مازال صغيراً، لم يخبر الحياة بعد.

-لا تقلقي " وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ "[2]

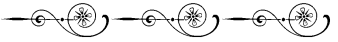

-أما هي فكانت في زنزانة منفردة، وكأنها من المجرمين الذين يُخشى على السجناء منهم.. لم يكن يعنيها سوء التعامل، ولم يكن يعنيها رداءة الطعام والشراب، لم يكن يعنيها انصهار الزنزانة عليها في الحر وكأنها وادٍ في جهنم، ولا برودتها في الشتاء وكأنها غرفة بالقطب الشمالي.

لم يكن يعنيها وضعها السياسي فهي لا تدري أي جريمة اقترفت؟ ولا أي ذنبٍ جنت يداها؟ زج بها في غيابات السجون زوراً وعدواناً، ظلماً وبهتاناً، لا ترى أحداً ولا أحداً يراها.. تشابهت عليها الأيام، لم تعد تفرق بين الليل والنهار.. هي لا تسأل الله الفرج بقدر ما تسأله أن يحفظ أباها وأمها.

---

[1] _ سورة يوسف الآية (٨٣).

[2] _ سورة النساء الآية (٩).

أتراه قد عاد؟ أتراه قد تذكر أن له أهلاً في أشد الحاجة إليه؟، تمتمت داعية:

-يارب كن معي.. أنا لا يعنيني السجن ألم يسجن يوسف من قبل؟.. تشابهت الأقدار لكن هو كان يوسف رسول الله من المحتم أن ينجيه الله بمعجزة، أما أنا فعائشة، وأما زمن المعجزات فقد ولى وانتهى..

رباه عطفك إذا ضاقت بي الأنفاس، توضأت ببقايا ماء، ثم انتصبت واقفة لله، هو فقط القادرعلى إنهاء ما هي فيه.

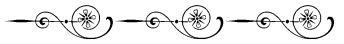

ألجمتها المفاجأة.. وشل تفكيرها للحظاتٍ ترى مَن يكون يارب؟ لعله صديق ذاك البرونو، أرسله إلي ليتعرف على خبايا نفسي.. ترى ماذا سيفعلان بي الآن؟!

ترجل لي معتذراً فتركته وذهبت، مد يده إلي مصافحاً فتركتها معلقة في الهواء وذهبت أيضاً.. لابد أنه سيعينه علي، ثم كيف يصادق دكتور "بورنو" شخصاً مسلماً ؟!

بالتأكيد ليس مسلماً.. لقد خدعني ليتجاذب معي أطراف الحديث فقط، أو ليعلم ما الذي أكنه بداخلي.. فجأة التقت عينها بعينه رأت فيهما الوداعة والهدوء، كانت نظراته إليها تفيض رقةوحناناً، ظل نظره مثبتاً عليها وكأن القاعة تخلو إلا منها، قطع سيل أفكارها فجأة صوت دكتور برونو قائلاً:

-دكتور أحمد النشار من مصر، صديقي وشريكي في العمل.. أستأذنكم في حضوره هذه المحاضرة.. ثم أتبع قائلاً وهو ينظر إليها في تحدٍ بالغٍ:

-نسيم، ألم أقل لكِ لا أريد رؤيتكِ ثانية؟ تفضلي بالانصراف.

-بالمناسبة يمكنكِ تقديم طلب النقل الذي تريدين، غادري فوراً.

-نظر أحمد إليه في ذهول، لم يستطع أن يسأله عن السبب.. من المفترض أنه يملك زمام الأمور هنا، يمكنه أن يستفسر عن سر هذا التصرف بعد الانتهاء من المحاضرة .

أما هي فكانت تجر خطواتها جراً، للمرة الثانية تطرد من القاعة، وكأنها مرض معدٍ يجب تجنبه والابتعاد عنه وإلا أصابتهم العدوى.. كانت دموعها منسابة على خديها، لكن الألم هذه المرة أخف وطأ من المرة السابقة، في المرة القادمة سيتلاشى إطلاقاً إن شاء الله .

ابتسمت في سخرية، ماذا لو كانت هذه هي المرة الأخيرة.. ألم يقل لها يمكنكِ المتابعة مع طبيبٍ آخر؟

-أكثر ما كان يؤلمها ذاك الذي منذ دقائق معدودة كانت هي تدير دفة الحديث معه، وكأنها ليست بالفتاة العادية، لكن بعد أن رأى بأمِ عينيه طردها من القاعة، سيتأكد لديه أنها بالفعل ليست بالوجه الذي قابل في الحديقة ولا بالعقل الذي خاطب.. هونت على نفسها بأنه لا يعنيها من الأمر في شيءٍ لن تراه ثانية، لعلها كانت المرة الأولى والأخيرة.

اتجهت إلى إدارة الجامعة وقامت باستكمال إجراءات النقل الروتينية، وبالفعل نجحت هذه المرة تنفست الصعداء الحمدلله لم تذهب جهودها هباءً هذه المرة، ليته قام بطردها منذ زمنٍ!

سمعت صوت هاتفها يرن.. تلقائياً ارتسمت ابتسامة على شفتيها ورددت:

-بالتاكيد أروى وإلا مَن سيتصل بها؟.

-السلام عليكم .. طمأنيني ماذا فعلتِ؟

-الحمدلله.. الأمور على ما يرام.

-ألم أخبركِ أنه لن يستطيع أن يفعل معكِ أكثر مما فعل؟

-بل فعل.

-تكلمي بجدية.. أنا لا أمزح!

-ولا أنا لقد قام بطردي مرة أخرى.

-وتتكلمين هكذا؟!

-لقد اكتسبت مناعة، ولم أعد أكترث لمثل هذا الأمر، لقد بات شيئاً عادياً.

-مَن يظن نفسه؟.. سأريكِ ما سأفعل به .

-كلا، لا تفعلي شيئاً، لقد سمح لي أخيراً بطلب النقل، وقد أنهيت إجراءته بالفعل، لم يعد يعنيني فى شيءٍ الآن.

-إذن ماذا ستفعلين الآن؟

-لا شئ سوى أن أطمئن على صحة أمي، ومن ثم أغادر إلى المسجد .

-حسناً انتظريني سأتي إليها معكِ.. خمس دقائق ونتقابل أمام حجرتها بإذن الله

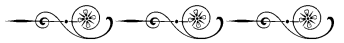

-دكتور برونو ما الذي فعلته، لمَ طردتها بهذه القسوة؟

-لأنها تستحق.. إنها فتاة غبية، متخلفة، متعجرفة.. ذاك الشيء الذي يسمونه بالحجاب يثير إزعاجي .

رفع حاجبيه في اندهاشٍ ولم تغادر ابتسامته شفتيه ثم قال متسائلاً:

مهلاً، ألم تعلم أنني أنتمي إلى هذا الدين.. وأقر هذا الحجاب؟

-أعلم، لكنك لا تشبهها.. أنت متحضر لا يليق بك ما تفعله هي.

-هي فقط تنتمي إلى نفس الدين الذي أنتمي أنا نفسي إليه.

-أنت لا تفهم.. الكثير من المشاكل في فرنسا لا سبب لها إلا الإسلام.

-هذا ما أفهموك إياه .

-مَن تقصد؟

-أقصد أعداءه.

وما الحكمة من ذلك.. لماذا يتحاملون على هذا الدين وحده دون غيره.

-بكل بساطة لأنه الدين الحق.

-لو كان الدين الحق كما تقول، لمَ لم يتكفل الله بحمايته؟

-لو كان عيسي الإله عند النصارى لمَ لم يتكفل بحماية نفسه من أن يصلب؟!

ثم أردف قائلاً:

-لو كانت اليهودية دين الحق لمَ لم يستطع موسى السيطرة على بني إسرائيل وإرشادهم للهدى والحق؟!

-بل دعك من كل هذا، جيفارا الذي ثار من أجل الشعب، قبض عليه بمكيدة من أبناء الشعب.. لمَ حاربت الحكومة الهندية "غاندي".. لماقتل "أبرهام ليونكلن" ؟

-سواءٌ اختلفنا أم اتفقنا مع هؤلاء.. لكن الأكيد كانت لهم قضية حق يحاربون من أجلها لما حُوربوا إذن؟

ثم أردف قائلاً وعيناه تسبحان في الفضاء:

-أعلمت أن الباطل لا يقرله قرارإلا إذا هزم الحق؟

-بدأت تتكلم وكأنك مثلها.

-بل أنا مثلها تماماً.

-وليكن، نحن أصدقاء منذ زمنٍ وأنا أعرفك ليست أول مرة ألتقي بك، أو أعمل معك.

-ماذا لو أتيتك بعد عدة أشهر ولحيتي في وجهي.. هل تستقبلني حينها؟

-نظر إليه ملياً عبر نظارته قائلاً:

-كلا سأهابك.

إذن أنت تتعامل مع اللحى وأغطية الرؤوس، وليس مع الأرواح والعقول.

-أراك متحاملاً علي.

-ولكني أحبك.

-وأنا أيضاً.. فلنبدأ الحديث في أمر العمل.

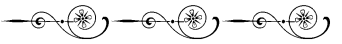

(٥)

إلا من قلبي

-اشتقت إلى سخافاتك كثيراً.. متى ستعود؟

-اممم عام، عامان، ربما أكثر.

-ألم تكبر بعد؟

-لا تعجبني نفسي هكذا.

-حسناً.. أخبرني ما الذي فعلته بشأن العمل؟

-أدهم أيمكنني الحديث معك أولاً في شيءٍ آخر؟

-تكلم طبعاً.

-لكنني محرج.

-تكلم أقلقتني.

-أدهم أنا أريد الزواج!

-ضحك ملئ شدقيه ثم هتف قائلاً:

ماذا.. زواج.. وهكذا فجأة.. ومِمَن؟.. ولماذا هذا الوقت تحديداً؟ لماذا لم تحدثني قبل السفر؟

-لم أكن قابلتها بعد.

-تقصد أنك تعرفت عليها في باريس؟!

-نعم.

-لست مطمئناً لهذا الأمر.. أعدمت مصرالفتيات؟

-ولكنها من أصل عربي.

-وليكن .. ماذا عن نشأتها، أهلها، أفكارها، عقيدتها؟

-لا أعلم شيئاً عن هذا.. أأخبرك بسر؟

-تفضل.

-إنها تشبهك في كل شيءٍ وكأنها أنت.

-حقاً؟!

-نعم.

-لكن ماذا تقصد بكل شيءٍ؟

-تشبهك طباعاً خلقاً وخلقاً.

-لهذا أحببتها إذن؟

-لا هذا هو الشيء الوحيد الذي لم استسغه فيها.

-هكذا.. إذن ابحث عن غيري ليساعدك في عرض الموضوع على أبيك.

-كنت أمزح فقط..هل ستظل جاداً دائماً هكذا؟

-أعلم، على كل حال أنت ذهبت من أجل العمل وليس الزواج.. عندما تعود إلى مصر حينها نتفق ما الذي ينبغي فعله؟ أخشى فقدانها؟

-إذن حاول أن تُعلمها بنيتك، ولنرى موقفها حينها.

-الله المستعان.. هذا ما كنت أنوي فعله.

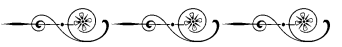

-انتظركِ منذ عدة أيام، كيف حالكِ؟

-بخير.

-أعتذر لكِ بالنيابة عن صديقي.

لا داعي للاعتذار.

-أريد أن أتحدث معكِ في أمرٍ خاصٍ، هل يمكنني ذلك؟

-تفضل.

-أيمكنكِ مغادرة فرنسا في يومٍ من الأيام؟

-من أجل ماذا سأغادر؟!

-من أجل زواجكِ.

-زواجي.. أنا لا أفهم شيئاً!

-بكل وضوحٍ، ما رأيكِ بي كزوجٍ لكِ؟

ردت مندهشة:

-زوج لي، أمي مريضة وفي أشد حالات المرض الآن.. ولا يمكنني الحديث في هذا الأمر وهي على حالتها تلك.

-أيمكنني زيارتها؟

-أمي فاقدة للوعي منذ أشهر، ولولا أنني طبيبة ما استطعت زيارتها أنا.

-شفاها الله، أيمكنني أن أعلم إلي أي بلد تنتمين؟

تنهدت بعمق ثم قالت:

-عندما أعلم أنا!

-أتمزحين؟!

-كلا.. أتحدث بكل جدية.. أيمكنني الانصراف؟

-لا.. أريد أن أتحدث معكِ بشفافية، هل لي بذلك؟

-نعم.

-منذ أن رأيتكِ وأنا أشعر بأشياء كثيرة تربطني بكِ.. ألم تشعري أنتِ بهذا؟

-بلى شعرت.. لكنها بالتأكيد روابط الدين والعروبة.

-ما رأيكِ إذا حاولت جاهداً أن أجعلها رابطة من ميثاق أغلظ.

-لم تستطع أن تخفي ابتسامتها هذه المرة قائلة:

-دع المقادير تجري كما كتبها الله.

-ولكني سأغادر لم يتبق من أعمالي هنا سوي القليل.

-فليوفقك الله.

-لم تجيبيني بعد.

-ولن أجيب.

-أريحيني من فضلكِ.

-يمكنني الانتظار ما لم يداهمني الموت.

-أفهم من هذا أنك ستنتظرين عودتي؟

-ابتسمت في هدوء:

-نعم.

-عديني بذلك.

-أعدك.

-سأعود سريعاً من أجل هذا اليوم الذي أصافحكِ فيه حلالاً.

خفضت بصرها في حياءٍ دون أن تتكلم.. وفي محاولةٍ منه لجعلها تسترسل معه في الحديث بادرها قائلاً:

-أشعر وكأن نشأتكِ عربية صرفة.. فتيات فرنسا لا يخفضن أبصارهن عندما يخجلن.. بل لا يخجلن من الأساس، مَن علمكِ هذا؟

أمي فعلت.

-أرسلِ لها تحياتي، ودعواتي أيضاً.

-فليقبل الله منك.

-يمكنكِ الانصراف الآن، لكن قبل ذلك أود أن أخبركِ أنني أوصيت صديقي عليكِ.

-وددت ألا تفعل، فأنا لا أثق به قيد أنملة.

-لكنني أثق به.. يمكنكِ المغادرة الآن ثم همس في نفسه "إلا من قلبي"

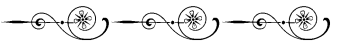

-حمدا لله على سلامتك.. اشتقت إليك جداً.

-هذا اعتراف واضح وصريح أنك لا تستطيع العيش بدوني.. حفظني الله وأطال عمري.

-آمين يا رب.. أطال الله عمرك حتى أحمل أنا أبناء أبناءك.

يا ألله أيمكن أن نصل إلى هذه المرحلة؟!

لمَ لا إن الله علي كل شيءٍ قدير.

-أشعروكأن الفترة المقبلة لن تكون في صالحي.

-لما كل هذا هذا التشاؤم؟!

-لا أعلم.. لكنني أصبحت أخشى الحياة أكثر من ذي قبل.. ألا تخشاها أنت؟

لا.. بل تعلقت بها أكثر.

-أتمزح؟!

-كلا.. لا يجب أن أغادرها قبل أن أنجز بعض الأمور.

-أيمكن أن أعلمها؟

-بالطبع سأخبرك إياها.. حتى إذا مت تكملها أنت.

-لمَ تذكر الموت هكذا وكأنك ملاقيه حتماً؟

-أعندك شك في أنني سألاقيه حتماً؟

ثم قال مردفاً:

كلنا ملاقوه، كلنا ملاقوه.. سأغادر لترتاح الآن، ولنكمل حديثنا غداً.

-أخبرني أولاً، ماذا قلت لأبي.

-لم أكلمه بعد.. لكن اطمئن هو يتمنى ذلك.

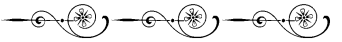

-رحل؟

-نعم.

-قالت أروى في ابتسامة خبيثة:

-إذن هذا هو السبب وراء كل هذا الحزن.

-أي حزنٍ؟!

-هذا الحزن الذي يبدو عليكِ.

-حزن يبدو علي.. أنا لم أدرجه ضمن أحلامي بعد، ولا يهمني أمره في قليلٍ أو كثيرٍ.

-ولمَ كل هذا؟

-لعله أشفق علي، فكان هذا دافعاً لما قال.

-بل أنا التي أشفق عليكِ.. تضحكين على نفسكِ أوعلي أنا، للمرأة إحساس لا تخطئه.. ألم يحدثكِ قلبكِ بشأنه؟

ضحكت نسيم في خجلٍ وأجابت:

-بلى حدثني.

-وبماذا أقر لكِ؟.. اعترفي.

-أقر بإحساسي أنا، لم يحدثني بشأنه.. أنا زهيدة العلاقات، قليلة الثقة في الآخرين، ترهبني التجمعات حتى المناسبات منها.. لذلك لم أحكم عليه بشيءٍ، بل حتى لا أستطيع.

-إذن ماذا عن إحساسكِ أنتي.

قذفتها بإحدى الوسائد قائلة:-

-أروى ما هذا التدخل؟.. لم أعهدكِ بهذا التطفل من قبل.

-أريد ان أفرح بكِ ولكِ.. أفي هذا عيبٌ؟!

-أيمكن أن أفرح وأمي مريضة؟!

-تأخيركِ للفرح لن يغير من الأمر شيئاُ.. إذا وجدتيه مؤمناً ذا دينٍ وخلقٍ فتوكلي على الله، سيعيينكِ على أمور الدنيا ونوائب الدهر.

-وماذا لو خدعت.

-دعي هذا الأمر لي.. لدي فراسة يصدق حدثها دائماً، خاصة في هذا الأمر.

-صحيح ماذا قررتي بشأن ذاك الأدهم؟

-لم أقرر شيئاً.. لعله تزوج.

-لماذا آثرتي التخفي عنه؟

-لأنني لا أحقق من أحلامي شيئاُ.. أنا عاجزة عن كل شيءٍ إلا الحلم.

تنهدت بعمقٍ ثم أردفت:

-في موطني تحقيق الأحلام حكراً على الأغنياء فقط.

-ألم تكوني منهم؟!

-بلى منهم لكنني لا أشبههم.. أنا لا أحلم إلا بأحلام البسطاء، الفقراء، الطيبين الذين سحقوا تحت عجلة الزمن.. أحلم بالعدالة والمساواة وإعطاء كل ذي حق حقه.

هذه أساسيات المجتمع، لما تتحدثين عنها وكأنها أحلام؟

-لأنها بالفعل مجرد أحلام.

-أهذه هي البلد التي سأنتمي إليها إن تزوجته، إنني أخشاها.

-البلد لا علاقة لها بحكامها ولا ظالميها.. بمجرد أن تطأ قدماكِ تراب هذا البلد ستشعرين أنك تذوبين فيها، وكأن عدوى الحب سرت في أوصالكِ، تشعرين وكأنها موطنكِ وكأن جميع شعبها هم كل أهلكِ.. مصررائعة فقط شوه طهرها بعض الطغاة، لكن التاريخ لا يرحم أحداً.

-تعتقدين أن عصور الظلام هذه ستندثر يوماً ما.

-أسال الله ذلك.

-تأخر الوقت أزعجتيني جداً.

يا لكِ من غادرة، أنتي التي جئتِ إلي.

-أتنكرين أنني آنست وحدتكِ؟.

-كلا، لا أنكر، بل أخشى يوم عودتكِ.

-سنعود سوياً بإذن الله.. تعودين عروساً وأعود أنا حاملة للدكتوراة.. سلي الله لنا ذلك.

-اللهم ذلك.

أسندت رأسها إلى الوراء، لا زالت تذكر تفاصيل هذا اللقاء وكأنه حدث ليلة البارحة... بالفعل تقبل الله دعاءهما وكأن أبواب السماء قد فُتحت خصيصاً لهما.. عادت أروى حاملة للشهادة التي سافرت من أجلها، لكن عائشة لم تحرر بعد.. وعادت هي عروس ورغم مرور ثلاثة أعوام على خطبتها من أحمد لكنها لم تزف إليه بعد.

زفافها سيكون الليلة حزيناً هادئاً وكأنه سرادق عزاء.. كان رحيله مؤلماً لم تعش معه كثيراً، لكنها بكل صدق أحبته من كل قلبها وكأنها تعرفه منذ أن ولدت.. منذ أن رأته في باريس لأول مرة كان آتياً كي يخطبها لأحمد.. شعرت برعشة باردة تسري في أوصالها، وقتها لم تكن تدري ما السبب، لكنها أقنعت نفسها أنها رهبة الموقف ورجفة أول لقاء.

لا زالت تذكر كل مواقفها معه، كانت قليلة لكنها حتماً كانت من أسعد لحظات حياتها.. لا زالت تذكر ذلك اليوم الذي دخل فيه غرفة المكتبة وكانت هي هناك.. كانت تحاول أن تصل إلى كتابٍ في رفٍ أعلى منها بكثير.. كانت منهمكة في محاولة الوصول إليه.. لم تشعر به وهو يقف وراءها ثم فجاءة أبصرته رجلاً طويلاً ملأ الغرفة بضحكاته قبل أن يأتيها بالكتاب الذي تريد.

لكنها بكل بساطة وتلقائية وضعت يدها على شعرها في محاولة منها لإخفائه.. ظهرت على وجهه علامات الاندهاش والاستياء في آنٍ واحدٍ قائلاً:

-ماذا تفعلين.. إنني أنا أخوكِ ..ألم تعلمي أن إزالة غطاء الشعر أمام الأخ مباح؟!

تلعثمت في تشتتٍ.. وعلى حين غرة حملها بين يديه متجهاً إلى الحديقة بأقصى سرعته تسبقه ضحكاته وضحكاتها أيضاً وضعها أمام النافورة ثم أغرقها بالماء وفي حركة طفولية منها هي الأخرى، وجدت نفسها تفعل به مثلما فعل بها وأغرقته أيضاً بالماء.

انحدرت دمعة على خدها، مسحتها في مرارة.. لو كان حاضراً الآن لتحول هذا الجو الكئيب إلى مرحٍ.. قبل موته أوصاها أن تصبر وتحتمل وألا تسمح للحزن أن يأكل قلبها.. لم تنفذ شيئاً من وصيته.. افتقدته بكل قوة وكأنه جزءٌ منها، ماذا لو عاشت معه أكثر؟

-آنسة نسيم، دكتورة أروى تستأذن في الدخول.

-دعيها تتفضل.

-ما هذا ألم تلبسي فستان زفافكِ بعد؟!

-أهناك ضرورة لذلك؟

-إنكِ عروس!!

-لكني سأزف من هذا البيت وإليه.

-دعي الفرحة تطرق أبوابه، خيم عليه الحزن طويلاً يكفي على والدك ما هو فيه.

-أمي وهو أليس هذا بكثير عليّ؟

ازدردت ريقها في مرارةٍ قائلة:

-هذه سنة الحياة برغم كل آلامها، إلا أنها تستمر.. لو يعلم الموت ما يفعله الفراق بقلوبنا لأشفق علينا، ثم أجهشت بالبكاء.

-مبارك، أبوك في غاية السعادة، ألم أقل لك؟

احتضنه أحمد في سعادةٍ بالغةٍ قائلاً:

أحقاً ما تقول؟

-نعم.

-وافق هكذا بسهولة ؟!

-ما المانع، والدك يود أن يرى أحفاده.

-كنت أعتقد أنه يفضل زواجك أولاً.

-كلا، إنه يود أن يرى له أحفاداً بصرف النظرعن أبيهم.

-لم يعترض على الفتاة؟

-لا، لكنه اشترط أن يراها ويحادثها قبل الخطبة

-له ذلك، وأعتقد أنها لن تمانع.. لكن ماذا عن الموعد، ألم يحدد ميعاداً للسفر؟

-لمَ كل هذا الاستعجال؟!

-خير البرعاجله.

اتسعت ضحكة أدهم وقال مقهقاً:

-هكذا إذن.

طرقات على باب الغرفة قطعت حدثيهما، لم يكن الطارق إلا الخادم.. أخبر الخادم أدهم أن والده يريده.

استاذن أدهم في الدخول على والده.. عقد ساعديه أمام صدره قائلاً:

-أخبروني أنك تريدني، ما الأمر يا أبي؟

-لا شيء يا بني، ولكن أردت أن أوضح لك بعض الأمور، ألم تثر خطوبة أحمد في نفسك شيئاً؟

-كلا، إنني سعيد للغاية.

-يا بني أريد أن أرى أحفادي.

قال في تعجب:

-أولاد أحمد سيكونون كذلك.

-ولكني أريد أن أرى أبناء ابني الأكبر أولاً.

-وهل هناك فرق؟!

-أنت لن تفهم، ثم إنني لست مرتاحاً لتلك الزيجة.. ألا توجد هنا فتيات حتى يتزوج من هذه الفرنسية؟.

نظر إليه في استغراب قائلاً:

-لم يكن هذا رأيك قبل ساعة واحدة ما الذي حدث.. ألم تخبرني أنك موافق؟.

أدهم أرضيني يا بني، ضاق صدري ذرعاً بسر لم أعد احتمله، أشعر وكأن نهايتي قريبة ولا أريد من الدنيا شيئاً سوى أن أحمل أبناءك بين يدي، ثم مرحباً بالموت.

-ما هذا السر الذي يجعلك لا تريد من الدنيا شيئاً سوى أن ترى أبنائي؟

-لن تحتمل يا بني، لكن إن مت قبل زواجك ورزقك الله بفتاة.. عدني أن تكرمها إكراماً لأبيك، وعدني أيضاً أن تبلغها تحيات جدها، وأنه كان يتمنى أن يحملها بين يديه، لكن أبوها أبى.

-أطال الله عمرك يا أبي.. أعدك إن شاء الله، لكن أحمد في عجلة من أمره، ومن الخير أن نجيبه فيما طلب.

-أنا موافق لكني أشعر أن في الأمر خطباً ما.. ماذا لو كانت هذه الفتاة لقيطة أو طامعة في مركز وثروة أحمد؟

-فرنسية وتطمع في مركز أو ثروة.. هذا لا يحدث إلا هنا فقط.. أما الفرنسيات فلديهن الحرية الكاملة ليفعلن ما يردن، والنساء هناك يحققن ثروة أكثر من الرجال.

-أنا لست مرتاحاً لهذا الأمر.. رآها في أسبوعٍ واحدٍ، وفي بلدٍ آخر فتصبح خطيبته بين يومٍ وليلةٍ، ما هكذا تؤخذ الأمور يابني.

-فلنرها أولاً، من الممكن أن تغير رأيك، أو يغير هو رأيه.

-الأسبوع القادم إذن.. أريد أن أنتهي من هذا الأمر عاجلاً.

-أدهم في ماذا كان يحادثك والدك؟

-لا شئ اطمئن.

-لن أطمئن، أنا لم أعد أفهم ما الذي يحدث في هذا البيت.

رفع حاجبيه متسائلاً:

-ما الذي يحدث؟

-ألم يخبرك جاسر بأمر المظروف المغلق؟

-جاسر.. و مظروف مغلق!!

-ما المشكلة في هذا.. جاسر هو محامي أبيك الخاص، ومن الطبيعي أن يستودع أبوك لديه وثائق خاصة.

ما قولك إذا أخبرتك أن أباك أمر ألا يفتح هذا المظروف إلا بعد وفاته وقبل توزيع التركة؟

فغر فاه مندهشاً ثم أردف قائلاً في تساؤلٍ:

-من المحتمل أن يحمل هذا المظروف وصية أو ما شابه ثم تمتم وكأنه يحدث نفسه:

-هل هذا المظروف له علاقة بالسر الذي طالما حدثني عنه.

-أدهم أنا أحادثك في ماذا تفكر؟

-لا شيءَ لم أعد أفهم شيئاً أنا الآخر.. سيسافر ثلاثتنا إلى باريس الأسبوع القادم.. استعد.

-أأخبركِ بشيءٍ.. والدتكِ تبدو جميلة حتى وهي في غيبوبتها، أشعر وكأن رونق الحياة نابضاً في وجهها.

-سمع الله منكِ.. كم أتمنى لو رأتكِ.

-هل كان هذا سيغير من الأمر شيئاُ؟

-على الأقل كنت سأشعر أننا عائلة.

اتسعت ضحكتها مرددة:

-عائلة.. هكذا إذن.. تريدين مني أن أخطبها لوالدي، سيئة أنتي.

-أنا لم أقل هذا.. قاطعتها في استخفافٍ:

-حتى لو قلتِ ما المشكلة؟ لو كانت أمكِ بخير لعرضت عليها أنا هذا، وهكذا يصبح لي أم أخرى وأخت، ما رأيكِ في....؟

-وقبل أن تكمل بادرهم صوت رجالي ملقياً التحية في هدوءٍ:

نظر إلى أروى متسائلاً:

-قريبتكِ؟

-لا بل زميلتي.

-أهلاً وسهلاً ،أنا دكتور إياد.

ردت أروى:

-أهلا بك.

-مصرية.. أليس كذلك؟

-بلى.

-أشعروكأنني رأيتكِ من قبل.

-وأنا كذلك.

-في أي مكان تقطنين بمصر؟

-القاهرة.

-لا أنا استقر بالإسكندرية.. قد يكون مجرد تشابه، فرصة سعيدة يمكنكما أن تعتبراني الأخ الأكبر لكما هنا، ثم تحول ناحية نسيم قائلاً:

-إذا أردت أن نعرض الوالدة على استشاري آخر أو طبيب من مركز البحوث فأنا مستعد لأن أساعدكِ، فأنا على علاقة طيبة بمدير المشفى.

تمتمت ببعض الكلمات شاكرة إياه.

نظر إلى أروى ثانية في تفحصٍ، وكأنه يتأكد بأنه فعلاً لا يعرفها.. ألقى التحية ثم انصرف.

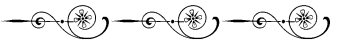

(٦)

وعـد

-برونو أين نسيم؟

تساءل مقهقاً:

-لهذا عدت ثانية.. صدقني كنت أعلم أن هذا هو سبب عودتك؟

-وما المشكلة في أن أعود من أجلها.

-تعود من أجل فتاة.. أين رجولتك يارجل؟

-رجولتي تكمن في العودة من أجلها ألم أعدها أنا بذلك؟

-وما الذي يميزها عن فتيات بلدك؟

-لا شيء، هي المشاعر فقط.

-أتؤمن بهذه السخافات؟!

-أؤمن بها وأقدسها.. هذه السخافات كما تقول هى سر الوجود وسر الاستمرار.

-وماذا لو انتهى هذا الوجود؟ ثم رفع كتفيه في استهتارٍ قائلاً:

-الأمر بسيط.

-لا ليس بسيطاً، إذا انتهى هذا الوجود فسيبدأ الوجود الأبدي.. الوجود الآخر.

-وما هو؟

-بالنسبة لك تلائمك جهنم.

-أهذا هو دينكم يعد غير المسلمين بجهنم.. أهذه هي الرحمة والإنسانية وعدم العنصرية؟!

-الرحمة والإنسانية وعدم العنصرية اسأل عنها نفسك لماذا عاديت إحداهن لمجرد أنها ليست من ديانتك؟ لماذا آذيتها وطردتها وأهنتها أكثر من مرة؟

-وهل الإله الحق يعاملنا كما نعامل نحن بعضنا البعض؟

-الإله الحق وعد الطيبين المحسنين المسلمين بالجنة، وأعد للسيئين العاصين النار حتى لو كانوا مسلمين.

-أهذا يليق بالإله الحق.. إذن فأين المغفرة؟

-تسأل عن المغفرة لأنك لم تجرب طعم الظلم.. لو غفر الله لكل السيئين في هذه الحياة ألن يكون هذا ظلماً للطيبين الذين ظلموا؟.. أهذا هو العدل من وجهة نظرك؟

-ثم أردف متابعاً:

-مَن سيأخذ للمظلومين حقوقهم، فكم من أناسٍ لم يأخذ القانون حقهم؟

-تقول أن جهنم أعدت للسيئين من المسلمين.

-أجل.

-لمَن؟

-للظالم والقاتل والسارق والزاني والذين يأكلون أموال الناس بالباطل، ويأكلون أموال اليتامى ظلماً، للذين يشيعون الفاحشة في الذين آمنوا، للمتكبرين، والكاذبين، للذين لا يوفون بالعهود.

-وأعدت الجنة لمَن؟

-أعدت الجنة للصالحين الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، والصابرين في البأساء والضراء، الثابتين على الحق، والرحماء.

-والله لو لم يأتِ دينكم بغير هذا لكفى .

-أهنئك على إسلامك إذن

-لا ما هكذا تؤخذ الأمور.. لكنني مندهش.

-ممَ؟

-لماذا لم تدعُني إلى الإسلام من قبل.

-لكنني أدعو الله لك بالهداية كل ليلة.

- لي أنا.. لمَ لم تخبرني إذن؟

-لأنني لا أثق بك، لكني أثق بالله.

-أيمكن للمسلم أن يحب غير المسلم؟

-نعم، وإلا لما دعوت الله أن يجمعني بك في جنته.

-وماذا عن الولاء والبراء في دينكم ؟

-أكره فيك معصيتك، أكره كفرك بالله، أبغض تعصبك وتشددك وعنصريتك.. لكن إذا أصابك مكروه ساعدتك، وإذا وعدتك فحرام علي أن أخلف وعدي، وإذا أمنتك فحرام علي أن أخذلك، وإذا جاورتك فعلي حسن الجوار، ولا أعاديك إلا إذا عاديتني.

-أعلم أن دينكم جاء بكل هذا.. لكن أين هذا من أخلاقكم؟.. أنتم لا تتعاملون بهذا بين بعضكم البعض، فضلاً عن معاملاتنا نحن.

-لكن النبي فعل.

-حدثني ماذا فعل.

-أيكفيك مثالٌ واحدٌ؟

-أريد الكثير.

-سأهديك كتاباً لكن عدني أن تقرأه.

-أعدك.

-وألا تنكر الحق إذا علمته .

-أعدك بذلك.

-لم تخبرني أين هي بعد؟.

-لا أعلم فهي ليست إحدى طالباتي، لكني سأرسل في معرفة مواعيدها من أجلك.. لكن متى ستهديني الكتاب؟

-قبل أن أعود إلي القاهرة إن شاء الله.

-أبي يريد أن يراكِ.

-لا أفهم !

-يريد أن يتحدث معكِ أولاً.. يعني هو يريد أن يطمئن إلى من ستكون زوجة ابنه.

-زوجة ابنه.. أنا أكره أن أكون محط أنظار الآخرين، وألا يكفيه أنك مطمئن؟

-هذه هي العادة في البلدان العربية، أن يرى أهل الخاطب المخطوبة.

-وهل في بلدانكم الأب هو الذي يرى خطيبة ابنه؟!

-فهم ما ترمي إليه فأجاب قائلاً:

-أمي متوفاه منذ زمن.

-رحمها الله.

-آمين، أبي وأخي سيأتيان بعد يومين، وستكون جلسة طبيعية جداً في المكان الذي تريدين.. لا تقلقي أبي رجل طيب جداً وكذلك أخي.

-هل هذا كل ما قاله لكِ؟

-نعم.. لكن أخبريني هل هذا الوضع السائد في بلادكم، أنا أخشى التعرف على الغرباء ولا أستسيغ جلوسي مع أبيه وأخيه لأوضع تحت الميكروسكوب.

-أنتِ تنظرين إلى الأمور بمنظار خاطئٍ دائماً.. علم أخوه وأبوه بأمر خطبته، وحضورهما إلى هنا خصيصاً من أجلكِ يوحي أنه من عائلة مهذبة محترمة، جاء الأب كي يطمئن على اختيار ابنه ويباركه.. أو يلغيه إن رآه غير مناسبٍ.

-وددت لو أنكِ رأيتيه، أنا في حيرة من أمري، لا أعلم ما الذي ينبغي فعله، جرت الأمور سريعاً دون أن أعد العدة لكل هذا التطور.

-من حديثكِ عنه شعرت أنه إنسان جدير بالثقة، ويستحق الحب.. نسيم أنتِ بحاجة إلي رجلٍ تواجهين الحياة معه، هذه فرصة منحتها الحياة لكِ، وقلما منحتنا الحياة فرص، تشبثي بها وإلا ندمتِ طول عمركِ.

-ستكونين معي أليس كذلك؟

-ضمتها في حنانٍ قائلة:

-لن أتركِكِ في يوم مثل هذا يا حبيبتى.. ثم إنني أنتمي إلى نفس البلد، وهذا بدوره سيساعدنى فى فهم شخصية كلٍ منهم.

-يا سيادة اللواء الفتاة لم تفعل شيئاً، هي فقط مرت بجانب المظاهرة.

-ومَن أدراك؟ ألم نجد في حقيبتها أوراقاُ وكتباً تدل على انحراف فكرها؟

-أتعتبرورقة بفرضية الحجاب، وكتاب أذكارومصحف، انحراف في الفكر يستوجب الاعتقال؟!

-في ماذا تجادل ألم يقبض عليها مع المخربين؟

لم تكن منهم، فقط مرت بجانبهم.

البلاد تمر بمرحلة استثنائية حرجة تستوجب الضرب على يد كل من ساعد في خرابها، ولو بالشيء اليسير.

-لكنها لم تفعل شيئاً من ذلك وأنت تعلم، الفتاه فقيرة، ومن أسرة عادية لا مصدر رزق لها ولا عائل، لم يكن يعنيها خراب البلد أو إصلاحها في شيءٍ، فقط يعنيهم رغيف خبز يسد رمقهم ودواء للأم المريضة.

-يا سيادة الوزير كارثة أن يخرج هذا الكلام منك، ولو علم به أحد فسيشيع عنك أنك منقلب على جهاز الأمن في الدولة.

-أتسمي نصرة المظلوم انقلاباً على جهاز الأمن؟

-أجل.. أنت تعلم أن الحسنة تخص والسيئة تعم، وهي لو كانت مظلومة ولا شأن لها بالمخربين لابتعدت عن مسيرتهم.

قال مردداً خلفه في استخفافٍ:

-الحسنة تخص والسيئة تعم.. هذا الكلام تقوله في الطابور الصباحي لمدرسة ابتدائية، أو في خطاب تافه في أحد النجوع التي لم يعرف إليها التعليم سبيله بعد.. أما في مكتب رئيس أمن الدولة فمن العته أن تقول هذا الكلام.

-عته!

لن أسمح لك بالتجاوز أكثر من ذلك، ولكني سأحترم علاقة صداقة قديمة، لأجلها فقط لن أخبر أحداً بأمر هذه الزيارة حفاظاً على منصبك.

-بل افعل أقصى ما يمكنك فعله.. حفاظي على منصبي إن كان سيقتضي أن أصفق للظالم وأنحني له راكعاً رافعاً القبعة لظلمه، ناكراً الحق وأنا أعلمه، فلا أريده حينها فليذهب المنصب إلى الجحيم.

-لماذا هذه الحالة تحديداً تثير تبجيلك للعدل، ونبذك للظلم وأنت تعلم أن مثلها الكثير.

-لأن هذه هي الحالة الوحيدة التي أتيقن تمام اليقين من براءتها.

تتيقن تمام اليقين من براءتها.. أم لأنها زميلة ابنتك؟

نظر إليه في دهشةٍ قائلاً:

-تعلم كل هذا؟!

-بل أكثر من هذا.

-هنا في أمن الدولة لدينا ملف لابنتك.. بل أنت الآخر سيصبح لك ملف بعد هذا اللقاء، وجريمة التعاطف مع إرهابية.

نظر إليه في استحقار ودون أن يستأذن خرج من المكتب وصفق بابه وراءه في عنفٍ.

بمجرد خروجه قال رئيس أمن الدولة في عصبيةٍ واضحةٍ محدثاً نفسه:

-هذا الرجل أصبح خطراً على الدولة ككل، لو قال كلامه هذا على الملأ لانضم إليه جل أبناء الشعب.. لابد من التخلص منه في سرعةٍ بالغةٍ، ثم التمعت عيناه في ظفرٍ، وأطل منهما بريق الغدر.

-أنا أحادثكِ بشكل ودي من الأفضل لكِ الاعتراف، وهذا من شأنه أن يخفف من عقوبتكِ، أما إذا صممت على الإنكار فهذا لن يفيدكِ في شيءٍ أنتِ مذنبة، وقبض عليكِ في مسيرة تخريبية دون أن تقيمي وزناً لقانون الطوارئ أو غيره.. بكل وضوحٍ مَن الذي ورائكم؟، ومِن الذي يمول جماعاتكم؟، ومِن الذي أمركم بالخروج في هذه المسيرة وهذه الساعة تحديداً؟

لم يتلق جواباً سوى الصمت .

-هل ستظلين صامتة هكذا.. الصمت لن يفيدكِ في شيء.

-تحملوا صمتي عدة أشهر قادمة، ألم أتحمل أنا صمتكم عدة أشهر فائتة؟بأتعلم أن هذا التحقيق من المفترض أن يكون منذ أن قبض علي؟

-لست هنا لأبرر لكِ سبب تأخرنا في التحقيق معكِ.. أنا هنا لأنتزع منكِ ما أريد معرفته.

-وهل الاعترافات تنتزع؟!

-ما رأيكِ أن تجلسي أنتِ مكاني وتحقيقين معي؟

-لا ليس الآن.

_ماذا تقصدين؟!

_يوماً ما سأجلس أنا لأحقق معك، إن لم يكن في الدنيا ففي الأخرة، حينها لن أرحمك.

ضحك في استخفاف قائلاً:

-أنا أمارس عملي، أوليس الاجتهاد في العمل عبادة؟

-وهل تعد ظلم الناس اجتهاداً أوعبادة.

-انا مأمور بفعل هذا.. أما كونكِ ظالمة أو مظلومة فهذا لا شأن لي به، وكل ما أريده هو اعترافكِ.

-ألا تخشى الله؟!

-أخشاه.. ولكنني أخبرتكِ أنني مأمور لست ظالماً .

-والله لولاك لما وُجد الظالم.

-حتى الآن، وأنا أتعامل معكِ بالرفق لكونكِ امرأة.

-إذن فلتحادثني امرأة لامرأة .

نظرإليها في غضب.. ثم نظرإلى الرجل الجالس وراءها نظرة ذات مغزى، ثم أتبعها قائلاً:

-حتى تتأدب.

لم تمض بضع ثوانٍ حتى امتلأت الغرفة بصراخها .

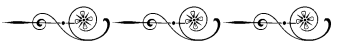

-ما رأيكِ أن أزوجكِ لأخيه؟

قالت ضاحكة:

-دكتورة وخاطبة في نفس الوقت.. خليط عجيب.

-ولكنه جميل أليس كذلك؟

-نظرت إليها شذراً ولم تجب.

-كفي عن نظرتكِ هذه.. أنا أتكلم بجدية ما رأيكِ.

-رأيي في ماذا؟

-في أن أزوجكِ لأخيه.

-ماشاءالله خاطبة بدرجة امتياز.. بالأمس تخطبين أمكِ لوالدي، واليوم تخطبيني لرجلٍ لم تريه بعد.. ياترى مَن الذي ستزوجينه غداً؟

لم تستطع أن تكتم ضحكاتها فقالت مقهقة:

-ألهذه الدرجة؟!

-تبدين سعيدة جداً.. ترى ما السبب؟ هل لأنكِ ستصبحين عروساً قريباً؟

-أجل.. وسأعيركِ بعنوستكِ منذ الغد.

-هكذا إذن؟

هزت رأسها مجيبة:

-نعم.

-ابتعدي يا شاطرة، فلو تزوجت أول عريسٍ تقدم لخطبتي لكنتِ الآن في عمر أبنائي.

ضحكت بصوتٍ عالٍ قائلة:

-وما الذي منعكِ من الزواج؟

-أنتظر شخص بعينه.

-ذاك الذي هربتِ منه عندما وجدتيه؟

أشاحت بوجهها قائلة:

-لا أريد أن أجده أنا.. أريد أن يجدني هو.. لا أريد أن ألمع أنا كي ألفت انتباهه، أريد أن يراني في أقصى حالات عتمتي ويحبني.. أريد أن يراني في قمة يأسي ويؤمن بي.. أريد أن يراني في أشد حالاتي ذبولاً ويقسم برونقي.. أريد أن يراني في أكثر أوقاتي جزعاً، لكنه متيقن من قوة صبري وتحملي.

-في الحياة لابد من بعض التنازلات.

-هناك تنازلات يمكنها أن تجعل من اللوحة باهتة، مثيرة للشفقة وكأنها لم تكتمل.. وهناك تنازلات لا تؤثرعلى جودة اللوحة في شيءٍ، فقط بعض الرتوش التي لن ينتبه لعدم وجودها أحد.. دعكِ مني هل أنتِ مستعدة؟

-نعم.. لكنني أشعر بوخز في صدري.. أشعر بقلبي يؤلمني.

-من أجل أمكِ؟

-نعم.. هل هذا هو حقها علي.. أضاعت عمرها في تربيتي.. وقضت زهرة شبابها معي... وعندما من الله علي بفرح استأثرت به دونها، أوليست هذه أنانية؟

-لا أريد أن أعقد لكِ الأمور.. لكنكِ تعلمين أن حالة والدتكِ في أشد المراحل صعوبة، عدة أشهر وهي في غيبوبتها تلك، فضلاً عن تصريح الطبيب المختص بأن حالتها حرجة جداً.

-لا أستطيع أن أرى سنواتي المقبلة بدونها.

هزت رأسها قائلة في أسىً:

-ستعلمين غداً أن العادة تسهل لنا كل أمرٍ.. وتذلل كل صعب!

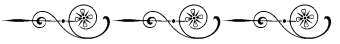

-قبل أن تسافر أعتقد أنه من الأفضل أن تذهب إلى فرع الإسكندرية، كي تطمئن على سير الأمور هناك.

-أمرك يا أبي.. لك ما طلبت.

-متى ستسافر إذن؟

-فجراً إن شاء الله

-أراح الله قلبك يا بني.

وفي الميعاد الذي حدده انطلق بسيارته صوب الإسكندرية.. وظل يسترجع ذكرياته معها في هذا الطريق، لم تكن ذكريات بمعنى الكلمة كانت لحظاتٍ قليلة.. لكن بعض اللحظات تكون ذات عمقٍ وطولٍ وعرضٍ وليست مجرد ثوانٍ ودقائق تمر دون أن يشعر بها أحد.

اختطف هذه اللحظات من جوف الحياة حتى خيل إليه أن الدنيا أخيراً نظرت له وهي باسمة.. لكن بعد لحظات قليلة فقط وقفت في وجهه ضاحكة ساخرة.. يستهزء القدر به دوماً.. فاق تفاؤله النصاب المسموح به حتى أضحى التفاؤل سذاجة.

وقبيل أن يصل بسيارته إلى معبد حبه، ومسقط قلبه، إلى أحب الأماكن إليه، ظل يسير ببطءٍ وكأنه ينتظر ظهورها له كما فعلت سابقاً، نزل من سيارته في نفس المكان الذي ترجل فيه سابقاً من أجلها، ما أقدر المناظر المعينة..

والأماكن القديمة على تجسيد الذكريات.. وإثارة الشجن.. رب صوتٍ مجهولٍ لا نعرفه أو نسمة عابرة تعيد إلى نفوسنا جيشاً من الأحداث، ولهيباً من الذكريات، ومروراً عبر الزمن، وانتقالاً من المكان إلى عالم آخر، رب صوت كروان، أو زقزقة عصفور، أو هطول مطر، أو المرور بمكان معين، ينكأ في نفوسنا جرحاً كاد أن يندمل وقرحاً كاد أن يشفى.. رب زهرة معينة، أو رائحة عادية جداً تعيدنا إلى الوراء أميالاً قطعناها في مشقة وتعب.

اتجهت نظراته صوب المكان الذي وقفا فيه من قبل، وشتان بين وقفته تلك ووقفته هذه.. وجودها في هذا المكان من قبل بث في روحه السعادة.. منحه إحساس باللذة الخفية، وكأن المكان رغم سكونه أصبح له روح، أما الآن فالمكان موحش، خرب.. مجرد طريق سيارات لا أكثر ولا أقل.. تمتم وكأنه يحادث الطريق.. ويسأله أن يجود بها!!

نعم الطريق.. أيمكن لعاقل أن يحادث الطريق؟!

لا شك أن هذا ضرباً من الجنون، لكن حياته الرتيبة المملة كانت السبب في ذلك، وعند أول فرصة سنح له القدر بها ثار محطماً كل قيوده ومبادئه.. جعلت منه رجلاً يمكن أن يحادث الشجر، والليل، والبحر، وفي محاولة منه لمواساة نفسه تمتم متسائلاً:

-أكل الشعراء مجانين؟!!

أوليس "ناجي" من قبل ناجى صخرة صماء لا تعي ولا تفهم ما يقول؟ أوليس "ابن زيدون" ناجى الورقاء على أغصان الشجرة وكأنها تفهم ما يختلج بصدره وما يدور بخاطره؟!![1]

أطلق من صدره زفرة حارة.. لقد غيرته السنون حتى جعلت منه شخصاً يناجي الجماد، ويتلهف علىٍ اللقاء وليس هناك أكثر لذة وأجمل وقعاً في نفسه من أن يسبح معها في عالم ذكرياته.. تلك الذكريات التي لم تتعد بضع ساعات.

استقل سيارته مرة أخرى ورأسه يصطخب بالأفكار.. هاهو أحمد يوشك أن يخطب ويتزوج.. وهاهو قارب على الثلاثين من عمره، ولا يزال واقفاً في مكانه يستجدي القدر اللقاء، ويطلب من الحياة أن تجود بها عليه مرة واحدة فقط، وهو سيتكفل بالباقي.. أجهده التفكير حتى أضحى مشتت الفكر، منهك الروح، ولم يعد يعي ما حوله حتى ذاك الطفل لم ينتبه لندائه.

طفل يحمل بين يديه كومة من علب المناديل في أحد إشارات الطريق.

وقرب مقر الشركة.. انتهت مدة الانتظار، وانطلقت السيارة في طريقها سريعاً.. أما الطفل فما كان منه إلا أن نزلت دمعة ساخنة على وجنتيه، وتوقفت عند زاوية فمه.. ابتلعها في مرارة وكأنه يزدرد خيبته معها، أو لعله يخشى حدوث العجز، ومداهمة الفقر إن هو استخدم منديلاً من مناديله التي يبعها، ولسان حاله

يقول:

"بائع الزهور أبعد ما يكون من السعادة.. وطبيب الأطفال عقيم.. وبائع العطر مصاب دائما بالزكام"

تمتم الصغير ودموعه تسبقه:

-هاهو أخو أروى تخلى عنا هو الآخر.. كانت عيناه مثبتة علي، لكنه لم يجب على ندائي، وتوسلي له كي يفتح زجاج سيارته.

-أبوك رجل حاد صارم هل سيوافق بزيجة كهذه؟!

-لمَ لا؟

-إنني جد مندهش.. من خلال تعاملي معه تأكدت أنه رجل يزن الأمور بميزان دقيق.

-ما المشكلة نحن في القرن الحادي والعشرين؟

-أعلم لكن طبيعة نشأتكم الشرقية، أعتقد أنها لا تفضل ذلك.

-طبيعتنا الشرقية.. مالك أنت بها.. أولست لا تقر العادات الشرقية في شيءٍ؟

-لا إنها لا تخصني لكنها ميراثك أنت.. مبادئك وتقاليدك.

-كفاك تشدقاً بهذا الهراء أيها العنصري، ما الذي تريد قوله ؟

-أصدقك القول؟

-أجل.

-إنني لا أحبها.

تسأل في عدم فهمٍ!

-مَن تقصد؟!

-نسيم.. وهل هناك غيرها؟.

قال ضاحكاً:

-وأنا لا أريد شيئاً غير هذا.

أجابه في دهشةٍ:

-حقاً.. أهذا لا يثير حفيظتك ضدي؟

-مطلقاً.. إنها تخصني دون كل رجال الأرض، ماذا يضير إن كرهها أحدهم؟!

-أوليس الامتلاك وحب الاستبداد بشخصها تخلف؟!

-نعم، بل أرقى درجات الرقي.. إنها زوجتي أو ستصبح كذلك، لا يهمها أصدقائي في شيءٍ مهما كان صغيراً أو كبيراً.. هي مسئوليتي.. بضعة من قلبي وقطعة من روحي.. حبك لها أو كرهك شيء عادي تافه لا يكاد أن يذكر فهو لا يسمن ولا يغني من جوع.

قال برونو في حبٍ وسخريةٍ معاً:

-سأقطع صلتي بك قريباً.

-وأنا في الانتظار.

-صحيح ماذا عن أدهم.. لقد أوحشني بشدة.

-يرسل لك تحياته ويقبلك.

-لماذا لم تخبرني إذن؟

-لقد نسيت.

قال مقهقهاً:

لقد أصبحت سطحياً.. تهيم على وجهك مثل الشعراء.

-وهل الشعراء سطحيون؟!

-لا يعنيهم من الدنيا شيء سوى لقاء مع الحبيبة كي يصفوا حلاوته مما عانوا سعيرا وقسوة الهجران.. أوليست هذه سطحية؟

-تعجبني هذه السطحية.. تركت العمق لأمثالك.

-ألم يتزوج أدهم بعد؟

-نعم، لم يتزوج.

-أدهم على درجة كبيرة من الشبه بأبيك حاد، صارم، جاد، لا يعنيه شيءٌ سوى العمل.. وهذا النوع من الناس فريد يثير إعجابي دائماً.. الرجل لا يليق به إلا أن يكون عملياً يقدس علمه وعمله.. أما الحب وصغائر الأمور هذه لا تليق بالعقلاء من الرجال.

-ما قولك إذا أخبرتك أنه هو الآخر يهيم على وجهه مثل الشعراء.

فغر فاه مندهشاً وقال في شبه ذهول:

-أحقاً ما تقول؟!

-ولمَ الكذب؟ إنني أشفق عليك من وقع المفاجأة.

-يبدو أنه مرض معدٍ.

-إذن ابتعد عني حتى لا أفيض عليك رقةً وحناناً.

-وهل تسمي الحب رقة وحناناً؟!

-أهناك تعريف آخر له؟

-نعم، يمكن أن يكون وقاحة وسخافة.. بلاهة وسذاجة أو أشياء من هذا القبيل، أنا لا أؤمن إلا بالأشياء المادية البحتة، أما أنت وأمثالك فلا تؤمنون إلا بالخيال، وتعدون وراء سراب، تاركين وراءكم الواقع، تنضح قراءتكم على أفكاركم فتبديها حلوة معسولة، ليست من الواقع في شيءٍ، لكني أنصحك في هذه الحياة يجب أن تتصرف بعقلك لا بقلبك وأن تتبع ما يفيد شخصك لا أن تتبع هواك.

-هل أنت مؤمن بما تقول؟

-أشد الإيمان.

-أنت أناني التفكير، مادي النزعة .

-وأفخر بذلك.. وأقولها بملئ في أنا أفر من الحب.. فرار السليم من الأجرب، فرار محب الحياة من الحرب.

-لا دين ولا حب.. أجزم أن قلبك خرب وروحك منهكة وجسدك ظمآن.

-لا.. أنا أرضيه بشتى الطرق.

-أوليست هذه حياة بهيمية؟

-لكنها ترضيني.

-ما الذي يفصل بينك وبين الجمادات تأكل وتعمل وتنام.. أما الروح فهي عارية لا تعترف بوجودها، ولا تعطيها حقها أو قدرها.

-وما هو قدرها.

-إذا كان حق الجسد هو الأكل والشرب... وحق العقل هو القراءة والفكر.. إذن فحق الروح هو العبادة والحب.

- ما علاقة العبادة بالحب.. أيهتم دينكم بهذه السفاسف من الأمور؟!

- وهل تعتبر الحب من سفاسف الأمور؟

-نعم.

- ديننا اهتم بعظائم الأمور كالحب فهو أساس الأسرة المسلمة.. أخبرتنا زوجة نبينا أنه كان يحبها، وكان لطيفاً معها، كان يصلح ثوبه بنفسه، ويشوص نعله بيديه، كي لا يرهقها.. قال على الملأ وأمام جميع أصحابه: إني رزقت حبها.. وعندما آذاها المنافقون بقولهم قال: لا تؤذوني في عائشة.. كان يقدر غيرتها وعندما ألقت بالطعام أمام أصحابه لم يزد على أن قال غارت أمكم.. كان يرسل إليها صويحباتها كي يلعبن معها وعنما يراهن يستترن منه فكان يخرج من المنزل.. أخبرتنا أيضاً أنه كان يغتسل معها في إناءٍ واحدٍ..وعندما وجدها اصطحبت معاها عرائسها في إحدى غزواته لم يعنفها بل سألها ماذا تفعلين بهم ياعائشة قالت أركب على هذا الحصان وأطير يارسول الله.

- كان يضع رأسه في حجرها كأنه طفل صغير لا كأنه نبي مرسل من عند الله، ولا كأنه خليفة إبراهيم وعيسى وموسى.

أخبرتنا أنهم ذات يوم خرجا إلى الصحراء فسابقها فلما سبقته لم يجد حرجاً من أن تهزمه زوجته، وإنما قال بأريحية تامة هذه بتلك.. وعندما سأله أحدهم من أحب الناس إليك لم يجد حرجاً من أن يذكر اسم زوجته وعندما قالوا من الرجال قال: أبوها نسب الأب إلى ابنته فلم يقل أبا بكر.

لم يكن يحضر في بيته بجسده فقط أراد أن يخبرنا أن الحب والاهتمام يجعل البيوت مستقرة دافئة.. والتفاهم والتسامح يجعل البيوت جنة، وذلك حتى نستطيع أن نخرج جيلاً سوياً قادراً على التغير والمنح والعطاء وهذا بدوره يجعل من المجتمع شيئاً محترماً... حتى نستطيع أن نعمر الأرض كما أراد الله.

-وهل أراد الله التعمير في الأرض؟

-نعم..وإلا لما شرع الزواج وجعله الله نصف الدين.

-أنتم تستعبدون المرأة.. هي عندكم عورة.. لا تفكرون في شيءٍ سوى حجابها أو سترها.. أهذه هي الأسرة التي ستبني المجتمع وتعمر الأرض؟

-أنت تناقض نفسك دائماً، منذ لحظات كنت أقول لك إن الحب من صميم الدين، وكنت تعتبره أنت من سفاسف الأمور.. والآن تخبرني أن المرأة في ديني مظلومة مستبد بحقوقها.. أنت لا يرضيك شيء.. أخشى أن تظل هكذا.. تعيش هكذا وتموت هكذا.

-لا تخش شيئاً أيها البخيل.. أين الكتاب الذي ستهدينه؟.

قال ضاحكاً:

-نسيت أمره.. فأنا لا أفعل شيئاً سوى أن أهيم على وجهي مثل الشعراء.

-كن جاداً.

-الكتاب في طريقه إليك.. لكن لا تحنث بوعدك الذي وعدتنيه.

-أي وعد؟

-أراك نسيته؟

-لا أمزح وللمرة الثانية أعدك إذا وجدت الحق لن أنكره.. لكن برأيك هل أنا أكثر علماً من غاندي وماركيز وقد يتضح لي ما خفي عليهم؟!

- قد لا تكون أكثر علماً.. لكنك قد تكون أوفر حظاً ويهديك الله بتوفيقه إلى ما حرمهما منه رغم علمها.

(٧)

كارثة وطن

الأوضاع غير مستقرة.. والأمن غير مستتب.. والسجون مليئة بالأبرياء.. والأسعار في ازدياد.. والشعب يتهاوى في انحدارٍ سريعٍ تحت خط الفقر.. والبطالة مرض فتاك منتشر بين خريجي الجامعات، والمستشفيات مليئة بالمرضى دون أسرة.. الإرهاب يفتك فتكاً بالجنود على الحدود.

وتخرج علينا القيادة قائلة: إنها تتلقى هذه الطلقات في صدورها بدلاً من الشعب، والحقيقة أنه لا يتلقى هذه الطلقات بصدورٍ مفتوحةٍ سوى أبناء الشعب الطيبين الذي فعل به حكامه أكثر مما فعل به الاستعمار.. رغيف الخبز أصبح مطلب ثوري.. والحرية أصبحت رفاهية.. والعدالة أصبحت أمنية.

شعب يفتك به الجهل فتكاً حتى أضحى شعباً هزيلاً، ينخر فيه سوس المرض تحت وطأة البلهارسيا، وماء الترع، والخبز الذي يحوي التراب، والطوب أكثر من الدقيق.. أوليس هذا باحتلال؟!

حاشا لله.. إنه أسوأ..

أما عن الإعلام فحدث ولا حرج.. النار مشتعلة، ورائحة الموت تحاصر كل مكان، والظلم يسيطر على مؤسسات الدولة حتى التأم بها التئام الجزء بالكل.. ومع ذلك يخرج علينا الإعلام ليؤكد لنا أن الأمن مستتب، والأوضاع مستقرة، والعدل منتشر.. وأشهر بسيطة فقط حتى تصبح مصر من أفضل بلدان العالم.

وإذا سألت أبناء الشعب عن أسمى أمانيهم سيجيبونك لا نريد أن نصبح أفضل بلدان العالم.

فقط نريد مأوى لأطفال الشوارع.. نريد أسرة للمرضى في المستشفيات، نريد داوءً متوفراً.. نريد طعاماً للفقراء، ومقاعد لأطفالنا في المدارس.. أما ما عدا ذلك فهو ترف لا قبل لنا به.. حتى إن وجد فنحن لا نستسيغه.. نحن تعودنا على شظف العيش والإخشيشان.. صادقنا أشعة الشمس المحرقة والأرض الملتهبة.. أحببنا خشونة أيدينا، وتشقق أرجلنا.. نشعر أن حياتنا هكذا لها معنى وأننا نفعل شيئاً ذا قيمة.

أما الأغنياء الذين لا يفعلون شيئاً سوى تعلم آخر رقصة، وسماع آخر مقطوعة موسيقية، والواقع أن المال يجعل أصحابه على قدر كبير من السخف والتفاهة.

تثير اشمئزازهم اللغة العربية.. ويكرهون الشعب، ولا يتورعون عن اعتباره شعب فقير بدائي متخلف، وإذا سألت أحدهم ما رأيك بالمصريين؟، يجيبك منكراً، وكأنه أحد جهابزة زمانه... شعب جاهل..لا يفلح في شيء أمامه قرون حتى يصبح شعباً متمديناً، ولو تفكرت أنت في الأمر لوجدت هذه هي الكارثة والطامة الكبرى.

الكارثة ليست في المرض وانعدام الدواء.. ولا في الجهل وتدني التعليم.. الكارثة ليست في أطفال الشوارع، ولا في الخبز المختلط باالحصى والطوب.

الكارثة أن يتفوه أبناء الأغنياء وأبناء الفئة الحاكمة بمثل هذه الأقاويل... الكارثة أن يدفع القدر الغشوم هؤلاء لتولي مناصب الدولة.. الكارثة أن يصبح هؤلاء أصحاب الفكر العفن مسئولين عن مصير هذه الأمة.. أما الطامة الكبرى تتمثل في الإعلام الذي يحاول أن يقنع الشعب أن هؤلاء الشباب من ذوي الجاه والسلطان والأبهة الذين لا يجيدون العربية مثل إيجادتهم للإنجليزية

والفرنسية.. الذين يترفعون عن سماع قصيدة لشوقي ويخجلون من القراءة للمنفلوطي أو الرافعي ولا يوجد عندهم مصري واحد يمكن أن ينزلونه نفس المكانة التي احتلها في أنفسهم شكسبير أو دوستويفسكي.

تجدهم يقنعونك أن هؤلاء المخنثين من أبناء الكبراء والأغنياء ستبني بهم مصر مجدها.. وتصنع حضارتها.. وتقيم سؤددها.. هؤلاء الذين تثير أعصابهم اللغة العربية ولا يعرفون من الدنيا سوى آخر ماركة، وآخر أكلة فرنسية، وآخر موضة لقصات الشعر.. هؤلاء يتحدثون عن الشعب المصري وكأنهم ليسوا منه، ويترفعون عن عادتنا وتقاليدنا وكأنها سبة أو معرة، ليس لشيءٍ سوى أنهم من أبناء الطبقة العليا وإن شئت فقل الطبقة السفلى الرقيعة المدللة.. هؤلاء الذين لا يثقون باالتعليم المحلي فلجأوا إلى تعليم أبنائهم في مدارس أجنبية منذ نعومة أظفارهم.

فتحول فكرهم وتغيرت أذواقهم وتلوثت سريرتهم.. فترفعوا عن أمتهم وكرهوا شعبهم.. لا يتفاخرون بشيءٍ كتفاخرهم بالمدارس الأجنبية والمربيات الأجنبيات.. ويرون أن الطابع المصري طابع مشوه وفاسد لا يوجد به ما يدعو للتفاخر إلا هذه المقابر وتلك الموميات.. هؤلاء هم وزراء اليوم ورؤساء المستقبل... هؤلاء هم المسئولون عن التعليم والصحة والزراعة...هؤلاء هم القضاة الذين يصدرون إعدامات بالجملة وكأنهم بها يتخلصون من الشعب البائد المتخلف الذي لايستحق الحياة.. هؤلاء يسيرون على خطى هتلر، غير أن هتلر كان محارباً بشرف، يعادي في قوة ومنعة، كان يتخلص من أصحاب السادية والنفوذ والتكبر والغطرسة، أما هؤلاء لا يقتلون غير الفقراء والبسطاء والمرضى، لمَ لا وهم وباء يجب التخلص منه حتى لا ينقل العدوى لهم؟... لمَ لا وهم يخشون من الشعب، ويفرون منه فرارهم من الموت بغية الحفاظ على مناصبهم، وخشية أن تقوم ضدهم ثورة أخرى فتردهم عن غيهم؟

أحد هؤلاء كان يجلس أمامها وعيناه تشعان غضباً... ظل يرمقها بنظراته شذراً قبل أن يتحرك لسانه قائلاً:-

-للمرة الثانية... ما قولكِ فيما نسب إليكِ؟

--كذب وافتراء.

-لكنكِ مذنبة؟

-إذا كنت كذلك لماذا تحقق معي إذن؟

- أمنحكِ فرصة للدفاع عن نفسكِ.

وهل يكون الدفاع بعد أن صدر الحكم بأنني مذنبة؟ ألم يعلموك في دراستك أن المتهم بريء حتى تثبت إدانته؟

-لسنا في محاضرة قانون هنا... ثم مَن أنتي حتى تتكلمي عن القانون في وجودي؟

-وهل كان القانون حكراً على دراسيه الذين لا يجيدون استخدامه؟

-أليست عندكِ أية أقوال، سيصدر حكم إعدامكِ قريباً؟

-متي كان للشاه أن تناقش قصابها.. وللمحكوم عليه بالإعدام أن يجادل جلاده؟

هزت كتفها في سخرية وابتسمت في مرارةٍ ثم سكتت كي تستمع إلي الصراخ المنبعث من الغرفة المجاورة.. هي تعلم بمثل هذه الأشياء لكنها لم تتوقع أن تعيشها يوماً.. نظرت إليه في رعب.. بادرها بابتسامته البغيضة وكأنه شامت بها، وينبهها أن في الحجرة المجاورة مكان خاص لها... رفعت بصرها إلى السماء تستلهما الرحمة وتسألها الصبر والسلوان.

وضع قدم على قدم ثم أشعل سيجارة، وظل ينفث دخانه في وجهها في هدوءٍ مقيت، ثم قال بصوتٍ متجمدٍ وكأنه يخرج من أغوارٍ سحيقة:

-هل أنتِ مستعدة للمغادرة إلى الغرفة المجاورة؟

باغتها بالسؤال فجأة، لم يستطع عقلها المشتت أن يستوعب ما الذي يحصل بالغرفة المجاورة... لكنه بلا شك أسوأ أنواع العذاب، وإلا لما صرخت الفتيات بهذا الشكل الهستيري المكلوم ... قالت والدموع متجمعة في مقلتيها:

-أقسم لك لم أفعل شيئاً، ولا يعنيني أي شيءٍ عن السياسةِ، أو أنظمةِ الحكم.. أنا العائل الوحيد لأمي وأبي، وأكدح في سبيل لقمة العيش، وشربة الماء.

-وماذا عن أخيكِ؟

رفعت نظرها إليه في ذهول.. كيف لم تفكر في هذا من قبل؟.. من الممكن أن يكون قبض عليه أيضاً قبل هجرته باعتباره مهاجر غير شرعي.

هزت رأسها في عنفٍ وكأنها تنفض منها هذه الأفكار المقيتة...والتخيلات البائسة، وفي محاولةٍ منها لمواساة نفسها رددت بداخلها أن من المستحيل أن يقبض عليه ويزج به داخل السجون من دون إثمٍ ارتكبه، أو ذنبٍ اقترفه.. فقط مسافر من أجل العمل.. والسفر من أجل العمل ليس جريمة يعاقب عليها القانون.

لكن عقلها المنهك تساءل في وهنٍ:

وهل القانون لا يعاقب إلا مرتكبي الجرائم فقط؟!

ألم تعاقب هي على اللاشيء؟.. ألم توضع أشهر في السجن دون أن تدري ماذا فعلت؟.. وللمرة الثانية تنتبه على صراخ آتٍ من الغرفة المجاورة، ليبادرها المحقق قائلاً:

-في ماذا تفكرين؟.. عللكِ انتهيت من تلخيص ما كنت تجهزين قوله لدفع التهمة عن نفسكِ.

-لست متهمة حتى أدافع عن نفسي.. أنا أقنعك ببراءتي التي تأبى الاعتراف بها.

مَن الذي قتل النائب العام؟

نظرت إليه في ذهول مرددة:

-النائب العام!! هل تمزح مالي أنا وللنائب العام؟!!!!

- دعكِ من لعب دور الضحية التي زج بها إلي السجن ظلماً وزوراً.. فهذا الدور لا يليق بأمثالكِ من المجرمين مَن الذي يمولكم ويدعمكم؟ ومَن الذي أمركم بالتخريب والقتل؟

- لماذا تتكلم بصفة الجمع، أنا لا أنتمي إلى أحد، ولم أقتل أو أخرب.. ثم ما هذه التهمة الجديدة التي تنسبها إلي عندما حققت معي أمس لم تحادثني بشأن النائب العام؟.. فما الذي جد في الأمور؟!

-كل يوم يمرعليكِ هنا دون اعتراف يزيد أمورك تعقيداً وسوءً ويخطوبكِ نحو الهاوية.

قالت في شبه صدمة:

وماذا إن صممت على البراءة.. هل من شأن هذا أن تتهمني غداً بمقتل رئيس الجمهورية؟!!

انتفض واقفاً ثم أمسكها من عقصة شعرها، وقال وهو يضغط على أسنانه حتى كادت أن تسمع لأسنانه صريراً:

-وهذا ما تخططون إليه مقتل رئيس الجمهورية.. هي خطوتكم القادمة إذن.

رفع اللاسلكي محادثاً أحد رؤسائه ومنذراً له، وطالباً منه تكثيف حراسة رئيس الجمهورية، فالمتهمة اعترفت سهواً وبدون قصدٍ عن خطوتهم القادمة، ألا وهي اغتيال الرئيس.. وبما أن الأمور تزداد سوءً وتعقيداً.. فهذا السجن غير لائقٍ بمجرمةٍ خطيرةٍ مثلها لها علاقة بمقتل النائب العام، والتخطيط لمقتل رئيس الجمهورية.

ظنت أن الأرض تميد بها، وبطرق عنيفٍ على أم رأسها، ولم تستفق إلا وهى تجد نفسها لأول مرة منذ أكثر من ثلاثة أشهر ترى أخيراً ضوء الشمس وتتنفس هواء الشارع..

لأول مرة تشعر أن للهواء النقي لذة، وكأنه يختلف كل الاختلاف عن هواء الزنازين العفن.. هذا الهواء المعبق برائحة الظلم والحشرات.. ذلك الهواء الذي يضيق الصدرعند دخوله وكأنه يساعد على الاختناق لا على الحياة.

ترى هل اقتنعوا أخيراً ببراءتها؟ وستتجه من فورها إلى بيتها لكم اشتاقتهم كثيراً.. لكم اشتاقت لأمها تلك المرأة الصبورة التي رأت من الحياة ما رأت ولا زالت تقاوم وهي تبتسم دون تبرمٍ أو سخطٍ.

لكم اشتاقت إلى والدها.. إلى تلك السكينة التى تشع من وجهه، إلى تلك البسمة الحلوة التى تنير لها حياتها، إلى الصوت الرخيم، والبسمات الهادئة الوديعة.. لكم اشتاقت إلى أخيها الأصغر ذاك الشقي المشاكس الذى لا يعلم من الدنيا شيئاُ سوى التدليل والمشاكسة، ترى هل مازال كذلك عربيداً لا يهدأ ولا يرتاح حتى يلعب الكرة؟، أو يتابع مسلسلات الأطفال.. أم ترى أن الشقاء الذى أحل بهم فاض عليه هو الآخر حتى لم يغادر منهم أحداً.

كم اشتاقت إياد وتمنت قربه.. وكم اشتاقت إلى حضنه ورجولته.. دائماً كانت تشعر أنها تستمد منه قوتها وحمايتها، ما الذي أبعده وهم في أشد الحاجة إليه؟.. هل يا ترى مازال يعاني الشقاء؟ أم فتحت له الدنيا أبوابها حتي أنسته أهله؟.. هل يا ترى هو أحد المساجين هنا أم أحد الأطباء بالخارج؟

شعرت بيد أحدهم تدفعها إلى الأمام قائلاً بصوت أجش:

-أيها المتهمة اتجهي أمامي إلى الخارج.. لوهلة أبهرتها أضواء الشمس.. أغمضت عينيها في تأذٍ واضحٍ وكأنها لا تستسيغ ضوء الشمس، فمن اعتاد الظلام أزعجه النور ومن اعتاد على الظلم استنكر العدل والحرية.

(٨)

بين حِملٍ وحِملٍ

-لماذا تأخرت اليوم يابني أمك قلقة عليك.

-لقد حل الصيف والحرارة انتشرت في الجو وكل العربات بحاجة إلى المناديل.

-لا تجهد نفسك في العمل يا بني.. ما زلت صغيراً.

-ومن أين الدواء والطعام؟

- لنا الله يا بني.. الله لا ينسى عبيده حتى الطير تغدو خماصاً وتعود بطاناً.. قم واسترح يا حبيبي لا حرمني الله منك.

-لكني أريد أن أخبرك أمراً.

-ما هو؟

-لقد رأيت أخا أروى اليوم.

-ظهرت اللهفة علي وجه أبيه، وقال مردداً في عصبية أخو أروى.. وماذا قلت له، ألم تسأله عن عائشة أو حتى أروى؟.. لابد أنه في طريقه إلينا ليمدنا بأخبار عن عائشة، تكلم يا بني لماذا أنت صامت؟

كان الشيخ متلهفاً، ويظهر في ملامحه خليط من الأمل والتمني والرجاء.

أما عن الطفل، وإن شئت فقل عن الرجل، عندما رأى أباه بهذا الحال خشي إن هو أخبره بما حدث فقد الأمل الوحيد الذي عاش عليه أشهره الماضية.. خشي أن يكسر قلبه، أو أن يقطع خيط الرجاء بقوله هذا.

تلعثم وازدرد ريقه وكأنه يزدرد مرارته معه قائلاً:

وأصبت بنفس اللهفة التي أصابتك.. لكنني عندما عدوت خلف سيارته وجدت شخصاً آخر يشبهه

رد الشيخ في ضيقٍ:

ماذا؟.. ألم تقل أنك رأيته.

-أسف يبدو أن النوم اتخذ مسكنه بين جفني حتى ما عدت أميز ما أقول.

-قم واسترح غفر الله لك ما فعلته بقلبي يا بني.

نام الصبي ذاك النوم المتقطع.. جمعيكم تعرفونه، نوم البؤساء من الناس..رأى الطفل خلال نومه أحلاماً سيئة لا تختلف عن واقعه في شيء، فكلاهما كابوس بل إن أحلامه أقل وطئاً من واقعه، وأهون قسوة من حياته.

رأي نفسه والثعابين تحيط بعنقه.. وجسد أمه مسجى في زاوية الغرفة.. وأباه يفقأ عينيه بيديه، ثم يلقيها في لا مبالاة خلف ظهره، وكأنه ما عاد بحاجة إلى هذه العينين.. رأى إياد واقفاً جامداً يتابع كل ما حدث في هدوءٍ ثم أطلق علي نفسه الرصاص.. رأى أخا أروى ينظر إلى كل ما حدث في وداعة واسترخاء، وكأنه يشاهد أحد الأفلام الهزلية ، ثم يرتفع محلقاً إلى السماء.

وأخيراً أفاق من نومه مجهداً فزعاً، وكأنه كان في معركة.

هذه أحلام طفل لم يتجاوز المرحلة الابتدائية.. هذا هو الوطن الذي يقسو على جميع شعبه حتى أطفاله لم يسلموا من قسوته، حتى شاخ الطفل وكهل الشاب.

-أما هذا الشيخ البائس فلم ينم ليلته ظل الأرق صاحبه منذ اختفائها.. هل أنساها المال والعمل أبيها وأمها هي الأخرى؟، أم تراها انحرفت إلى الهاوية مثل بعض فتيات جيلها؟.. أم أغواها أحدهم فتخلت عن أعظم ما يمكن أن تملكه فتاة؟ ومن ثم لا قبل لها بالعودة إلى أهلها.. ترى هل خطفت؟!

هز رأسه في استنكارٍ، وكأنه يرفض هذه الفكرة ليس لشيءٍ سوى أنها أقربهم إلى الحقيقة، هو يثق في أخلاقها وفي تربيته.. أقرب الأمور إلى الصواب هو أن هناك حائل حال بينها وبين العودة، لعله الخطف كما فكر فمصر هي البلد الثالث على مستوى العالم في تجارة الأعضاء البشرية!

لعل أحدهم يبصر بعينها، ويعيش بقلبها ويتنفس برئتيها.

لعلها قتلت في حادث سير، أو مثله فواروها التراب خوفاً من المسائلة القانونية.. هذا عن عائشة ،فماذا عن إياد؟ إلى متى سيظل هكذا؟.. متى ينتهي هذا العذاب؟.. هو لم يعد يحتمل.. أعصابه مرتعشة مجهدة.. هده العمر والزمن والمرض.. لم يعد به طاقة لمجابهة هذه الأمور.

هو ليس ساخطاً على قضاء الله وقدره.. لكن الغياب طال، والغمة اشتدت دون بارقة أملٍ واحدةٍ.. مَن في مثل هذا العمر الآن ينعمون بدفء العائلة، وهدوء الاستقرار، وسند الأبناء، وحنان البنات؟.. يجنون ثمار ما زرعوا في أبنائهم.. أما هو زرع وسقى لكن زرعته شلت قبل موسم الحصاد بأيام.. لم يعد له سند سوى هذا الطفل، أيمكن أن يصيبه ما أصاب إخوته؟

أليست هذه هي العادة؟.. فقد كل شيءٍ.. الصحبة، والعمر، والأبناء وزوجته على وشك أن يفقدها هي الأخرى.. ستموت حسرة وكمداً على أبنائها.. نزلت دمعة من عينيه البيضاء.. أخيراً رفقت به دموعه.. أشفقت عليه من كل هذا الصمود، والوقوف في وجه الحياة.. أشفقت عليه حتى سالت على وجنتيه، وكأنها تنبأه بضعفه، تنبأه بكهولته، تنبأه أنه هو الآخرعلى شفا الهاوية.

هو الذي وقف في وجه الحياة متحدياً الفقروالفاقة، متحدياً الظروف، كلما كشرت الدنيا عن أنيابها كشر هو الآخر عن إيمانه بالله وثقته فيه، وكلما ضحكت منه ساخرة ولاها ظهره هو الآخر ساخراً، وكأنها لا تعنيه وكأن ضرباتها

لم تصبه.. أخيراً سقطت دموعه ورفع معها راية استسلامه ..هو لن ييأس من رحمة الله، لكنه على الأقل لن يتمنى عودة أي منهما.

الأماني مُرة إذا ما أبت أن تتحقق.. والأحلام سخيفة سيئة إذا ما كان هناك سبيل إليها.. والطموحات بعيدة متعالية إذا ما أردناها بصدق.

استيقظ الطفل من نومه حاملاً هم لقمة العيش.. حاملاً هم الدواء.. حاملاً هم إيجارغرفة السطح، هموم تضيق لها صدور الرجال فكيف بطفل مثله؟!!

اتجه إلى الشارع مغادراً.. كان الجو صباحاً، والطرقات يفترشها الندى والدنيا ضاحكة باسمة الأطفال تمتلئ بهم الشوارع والطرقات في هذا الوقت من الصباح.. أطفال في مثل سنه، وفي مثل طوله وحجمه.. تشابهت أعمارهم وأجسادهم، لكن اختلفت مصائرهم، هو يحمل هم الدنيا على كتفيه، أما هم فلا يحملون إلا حقائبهم المدرسية.

يتضاحكون ويتلاعبون وتتعالى أصواتهم.. ظل ينظر إليهم في تمنٍ وترقبٍ حتى انتبه وهم يشيرون إليه، وهم يتغامزون، ويتضاحكون على ملابسه، ويلقبونه بالشحاذ.. تجرع مرارته في صبرٍ وجلدٍ، واستدار ليخفي دمعه أوشكت أن تسقط من عينه.. لم يشفق عليه أحد سوى ذاك الطفل الذي عندما رآه أتاه مهرولاً، وابتسامته تملئ وجهه ثم ناداه قائلاً:

-محمد هل تذكرني؟

-عبدالرحمن كيف حالك؟

-أنا بخير ماذا تفعل وما هذه الحقائب؟

-أبيع المناديل، حتى أستطيع أن أحصل على ثمن الطعام والدواء.

-وأين أبوك؟

أبي مريض.

لقد سألت عنك في مدرستنا القديمة قالوا أنكم انتقلتم من شقتكم.

-أجل، أنا أسكن قريباً من هنا.

-ونحن كذلك انتقلنا إلى شقةٍ جديدةٍ.. تعال أريك مدرستي.

-لا عندي عمل.

- لا تخش شيئاً، إنها قريبة من هنا، ومدرسوها طيبون ليسوا كمدرسي المدرسة القديمة.. أتصدق أنهم يعطوننا البسكويت المحشي بالبلح دون مقابل؟ ولا يضربوننا، أو يعاقبوننا حين نغيب، فقط يخبرون أمي كي تفعل اللازم وهي دائماً لا تفعل شيئاً.

لم تلتقط أذنيه سوى الجزء الخاص بالبسكويت.. سأله في تلهفٍ:

-وهل البسكويت طعمه لذيذ؟

- نعم.. أنا أكله كله دون أن أترك لأختي الصغيرة منه شيئاً.

ابتلع ريقه الذي سال أثناء الحديث عن البسكويت ثم بادره عبدالرحمن قائلاً:

ما رأيك أن تنتظرني هنا حتى أنتهي من المدرسة وأريك إياه ثم نتقاسمه سوياً

تهلل وجه محمد ثم سأله في شك:

-حقاً؟

-نعم.

-وماذا عن العمل؟

-هل أبوك رجل طيب؟

-نعم

إذن لن يضربك.. قل له أي شيءٍ.. لماذا سكت؟ هل ستنتظرهنا؟

-سأنتظرك لكن لا تتأخرعلي.

روح الطفل لازالت بداخله.. حبه للحلوى، لازال نابضاً فيه بقوة تحمل هموماً تنوء تحتها الجبال.. رأى أهوالاً تشيب لها رؤوس الولدان، رغم كل هذا غلبته طبيعته.. هو طفل مهما اصطبغت حياته بألوان العذاب.. مهما تحمل من قسوة الحياة وشظف العيش.. مهما أحرقه سعير الفقر.. إلا أن الطبيعة انتصرت أخيراً واعترفت بطفولته.

ظل جالساً في تمنٍ وترقبٍ.. علبة من البسكويت ينزع أوراقها ويتناولها في لهفة وحرمان كلها، أجل كلها لن يترك لعبدالرحمن شيئاً منها، أفاق من شروده على صوت صاحبه يناديه:

-محمد ألا زلت هنا؟

-بلى.. أنتظرك.

-هيا نجلس في هذا الشارع الهادئ، ثم أشار إلى شارع جانبي .

-أرني البسكويت أولاً.

-معي في حقيبتي لا تقلق.. كل يوم أكله صباحاً، أما اليوم تركته خصيصاً من أجل أن أتقاسمه معك ذهبا إلى الشارع، مرت الثواني على محمد وكأنها أعوام، وضع صاحبه حقيبته كي يجلس عليها بعدما أخرج منها البسكويت، أما محمد فقد جلس على الأرض دون أن يفترش شيئاً، فقد كانت ملابسه هي والأرض سواء.. لم يكن يعنيه شيء سوى جنة الدنيا التي بين يدي صاحبه.

فتح عبدالرحمن البسكويت ومحمد ينظر إليه وكأنه يفتح كنزاً.. وأخيراً تقاسماه.. وضع محمد الجزء الخاص به في فمه وأكله فى قضمةٍ واحدةٍ.. ثم نظرإلى الجزء الخاص بعبدالرحمن والذي لازال بين يديه، رق له قلب صاحبه!!

مازال طفلاً لم يعرف من الحياة إلا حلوها، ومن الصداقة إلا أنبلها، ومن الحب إلا أوفاه.

مد يده ناحية صديقه وبها قطعة البسكويت الخاصة به، ثم قال في رضىً تامٍ:

خذه كله فأنا أكل منه كل يومٍ، وقد عافته نفسي، ولا أشعر بشهية له اليوم.

نظر إليه الآخر في امتنانٍ وحبٍ، ولم يفعل شيئاُ سوى أن أكل ما قدمه له الصغير الآخر.

-ما رأيك أن تأتي معي لأريك شقتنا الجديدة.

-لا لم أحصل على نقودٍ اليوم، وسيغضب مني أبي.. سأذهب إلى العمل.

- كما تريد.

-أعطى كلا منهما ظهره للآخر، وفي النفس آمال وآلام، أحدهم لا يعي من الدنيا شيئاُ، والآخر يعي منها كل شيءٍ، ثم فجأة ارتفع صوت أحدهم قائلاً في رحمةٍ وودٍ:

-محمد هل سأراك ثانية؟

-لا أدري.

-ارتد عبدالرحمن بضع خطواتٍ، وهو يقول في أخوية بالغةٍ وصداقةٍ بريئةٍ:

-ما رأيك أن تنتظرني كل يوم عند باب المدرسة ثم نتقاسم البسكويت؟

-ألن تضربك أمك؟

-نعم.. إنها تقول لم يعد لها من الدنيا سواي أنا وأختي بعد وفاة أبي.

-وهل مات أبوك؟!

-أجل.. ألم أخبرك؟

-نعم.

-وقتها كنت تركت المدرسة، ولم أرك منذ ذلك الحين، ماذا قلت هل سأراك غداً في الصباح؟

-نعم.

وافترقا.. عادت إليه طفولته بمجرد رؤيته لصديق دراسته، ورفيق مدرسته.

افترقا فراقاً عادياً.. لكن لم تعد نفسه كما هي تأجج في صدره حب المدرسة والرغبة في العودة إليها.. يكفيه انقطاع عنها، ما باله يكدح في سبيل العيش هكذا لابد أن يعود باكراً ليخبر أباه بما انتوى فعله.. ولماذا ينتظر ميعاد العودة؟، سيعود ليخبره الآن، ومن الغد سيكون بجانب صديقه في هذه المدرسة.

دُفعت إلى داخل السيارة دفعاً.. تفاجأت بوجود غيرها من الفتيات لم تستوعب أي شيءٍ، صراخ، وزحام، وأصوات متداخلة.

تخرج عربة الترحيلات مسرعة من الباب الحديدي الأسود الكبير للسجن.. تهرول الأمهات باكيات والشباب والبنات، الكل يجري محاولاً اللحاق بالعربة التي تقلهم، ومن خلف شباك العربة وقضبانه تنحت هي جانباً حتى تتيح فرصة للأخريات لا شك ألا أحد ينتظرها، أو يهرول وراء العربة من أجلها.. رأت الأيدي تتشابك والدموع تنهمر والأصوات تختفي في الصدور.

استوعبت أن العربة هي عربة ترحيلات للسجناء الخطرين.. الفتيات جميعاً بكين، وحدثن أهلهن، ولوحن لهم إلا هي، وحيدة طريدة منبوذة في سجنها لم يبحث عنها أحد، ولن يبحث عنها أحد، لماذا تنتظر أن يزورها أحد؟

ألم تر بأم عينيها أهالي السجينات وقد نال منهم الجهد والتعب والحر والظلم أيضاً حتى يأسوا.. تقدمت العربة وهم ما زالوا في عدوهم حتى كلت أقدامهم، وأشفقت أجسادهم على قلوبهم.. لماذا العدو؟.. هم لا يعدون وراء بناتهم بل وراء أشلائهم، بقايا من الروح المنهكة، والعقول الواهنة، والقلوب المتحطمة.

لم تحادث غيرها من الفتيات، كانت كل واحدةٍ منهن بداخلها ما يكفي، ولا يوجد بداخلها رمق لمعرفة تفاصيل مأساة الأخرى، ضاقت صدورهن بمآسيهن حتى ما عادت تتسع لمآسي الأخريات.. ما الذي حدث؟، وما الذي تغير؟ أليس من المعلوم أن المشاركة في المصائب تهون وقع المصيبة على أصحابها؟ لماذا تغير الحال؟!

فاض القلب بحزنه، وطفح الصدر بمأساته حتى ضاق ذرعاً بسره، فما بالكم بسر صاحبه؟

توقفت العربة ثم، أُقتيدوا تجاه غرفة مخصصة لهن، جلسن وكأن على رؤوسهن الطير.. كانت مستأنسة بهن، هي لا تعرف أياً منهن، وتعتقد أن علاقتها بهن ستكون سطحية هي لا تحادث أحداً إلا قليلاً، دائماً منطوية خجولة، ومع ذلك اطمأنت لوجودهن، وكأن المصائب وحدت بين أرواحهن حتى أصبحن روحاً واحدة في أجساد متفرقة.

ظلت كلٌ منهن حبيسة أفكارها، وأسيرة أمنياتها.. هذه الزنزانة البالية أقل بؤساً وأكثر رفقاً من أمانيهن المتعالية، وأحلامهن المتكبرة، وطموحاتهن البعيدة.

لم يقطع الصمت سوى صوت أحدهم ينادي باسم فتاة ما.. لم تكترث عائشة للأمر، لكنها فوجئت بالذعر يخيم على ملامح واحدة منهن، ودموعها

تنحدرعلى وجنتيها وكأنها شلال ماء، كانت تتمتم ببعض الكلمات لم يفهم أحد منها شيئاً،لكن بالتأكيد دعوات صامتة مرسلة لرب السماء.

كرر الصوت الرجالي نداءه.. وقفت الفتاة بصعوبة في ألمٍ وانكسارٍ، ووقفن جميعاً لوقوفها، وكأنهن يساندنها، منهن من رتبت على كتفها، والأخرى شدت على يديها في قوة، وتفوهت الأخريات ببعض الكلمات حتى يجعلنها تتماسك وتصبرلقضاء الله وقدره.. خرجت الفتاة في خطوات وئيدةٍ منكسرةٍ، ترى هل ستعود أم أنهن نقصن واحدة؟ .. ياترى أخذوها إلى أين بالتأكيد ليس لمنزلها أو أهلها وإلا لما انتقلن إلى لهذا السجن من الأساس؟

أخيراً تحدثت واحدة منهن، كان صوتها حلواً هادئاً يبث الطمأنينة في النفوس، ووجهها مشرقاً رغم ما به من شحوب.. قالت وكأن بينهن سابق معرفة:

-كيف حالكن؟!

تتمتمن ببعض كلمات الشكروالحمد، قالت في مودةٍ بالغةٍ:

-أنا ليلى الشامي طالبة بكلية الصيدلة جئت إلى هنا منذ سبعة أشهر.. ظللت انتقل من سجن إلى آخر حتى التقيت بكن.. مالي أرى الحزن مخيم في ملامحكن؟ واليأس اتخذ مسكنه بين قسمات وجوهكن، ما بالكن.. أفقدتم الجنة أم زج بكن إلى النار.. كل مصيبة هينة ما دامت ليست في ديننا، كانت كلماتها سهلة لينة.. صمتت فجأة وكأنها تتذكر شيئاً، غمضت عينها ثم تنهدت بصوت متهدج قائلة:

-أتدرون ما هي قصتي؟

(٩)

رحيلٌ مفاجئ

استيقظت فجراً.. هذا هو اليوم المحدد لزيارة والد أحمد، قلبها يخفق بشدة، وأعصابها مشدودة متوترة، رهبتها من الموقف تشعرها بلذة خفية ومتعة لذيذة.. لم تنتظر شيئاً في حياتها كانتظارها لزيارة زوج المستقبل هذا، نعم هي فتاة مثل باقي الفتيات تتلهف على هذه الأشياء، حفظت نفسها، وحرمت قلبها من كل متع الحب من أجل هذه اللحظات وهذا اللقاء.. ما بالها جالسة هكذا؟ لابد أن تقضي بعض الوقت في اختيار الأسئلة المناسبة والأجوبة المنطقية، لابد أن تستفسر عن ظروف الزواج في مصر، لابد أن تسأله أين يستقران هنا أم في القاهرة؟

أولاً لابد أن تذهب إلى أروى كي تطمئن على هندامها وتتأكد من حسن مظهرها.

عقدت العزم على أن تذهب إليها بعد أذان الفجر، وعندما تنتهي من الصلاة، لكنها تراجعت عن الأمر لقد سهرتا كثيراً ليلة البارحة من الأفضل أن تتأخر بعض الوقت حتى تأخذ قسطها من النوم .

بمجرد تسلل أول خيوط الشمس من نافذتها، اتجهت نحو شقة أروى، طرقت بابها كثيراً لكن ما من مجيب، لابد أنها نائمة، لم تنم إلا في وقتٍ متأخرٍ ليلة أمس، من الأفضل أن تعود، ثم تأتي إليها بعد ساعةٍ.

اتجهت ثانية إلى شقتها، قررت أنها لن تذهب للجامعة اليوم، ذهبت إليها كثيراً غيابها هذا اليوم لن يضير، هي اليوم في حكم العروس، ساعات قليلة فقط ويأتي فارسها على حصانه الأبيض المجنح كى يسافر بها من هذا العالم الكئيب الممل إلى دنياه، أخيراً سيكون لها رجل تتكئ عليه، وتطمئن إلى وجوده، وتركن إلى جانبه.. هي لم تختلط برجل قط حتى اليوم ولا علاقة لها بهم سوى علاقة الطالب بأستاذه ، أما ماعدا ذلك فلم تشعر بوجود أب أو أخ أو زوج.. أخيراً سيقترن اسمها باسم رجل آخر،ستحكي له عن أمها، سيسافر بها إلى كل بلاد العالم، سيعوضها عن حياتها الجدباء المقفرة، ستتزوجه وسيصبح أباً لأطفالها .. ستختار معه أسماء لأطفالهم، ستسمي الفتاة "مريم" إكراماً لأمها وعليه أن يتقبل الأمر، أما الولد ستترك لأبيه مهمة اختيار اسمه، يكفيها أنها اختارت اسم الفتاة، ستزور مصر معه، أخيراً ستشعر أنها تنتمي لبلد ما، ولن يجرؤ أحد على مضايقتها بعد الآن فهي لديها زوج.

انقضى وقت كثير، لابد أن أروى قد استيقظت، اتجهت إليها مرة ثانية ولم تكن هذه المرة بأفضل من سابقتها، ظلت تطرق وتطرق دون أن تخرج إليها أو تجيبها.. أين هي إذن؟

اتجهت إلى هاتفها علها تجيب على اتصالاتها، وبمجرد أن ضغطت على ذرالاتصال، أجابها ذاك الصوت البغيض دائماُ "الهاتف مغلق".

قلقت بعض الشيء، لكن تفكيرها ركن إلى أنها لابد ذهبت لتشتري بعض الأشياء، لعلها أرادت أن تفاجأها.. أروي دائماً غامضة مبهمة تحب المفاجآت، لعلها قررت أن تفاجأني.. ركنت إلى هذا التفكير، واتجهت مجدداً إلى شقتها.. لكن الانتظار طال وساورها القلق والخوف عليها في آنٍ واحدٍ، هي تعلم أن الناس على وشك الحضور، لماذا غابت إذن؟ لماذا تتعمد الغياب في أحلك الأوقات وأشدها احتياجاً لحضورها؟.. ساعة واحدة فقط على ميعاد اللقاء،

كيف لها أن تتعامل معهم ثقافتها مختلفة، وهي لا تعلم شيئاً عن هذه الأمور بمصر، ولا حتى بفرنسا، ثم كيف لها أن تتعامل مع والده إنها تخشى اللقاء به.. خيراً لها أن تعتذرعن اللقاء من الأساس ريثما تعلم ما الذى حل بأروى.

على الجانب الآخر كان أحمد يبتهل إلى الله كي يلقي في قلب أبيه اللين والرفق تجاه نسيم، هو لا يدري ما سر هذا التجهم وهذه الكآبة المخيمة على وجه أبيه.. هل لأنه سيخطب هذه الفرنسية التي لا يعلم عنها شيئاً ؟ أم لأنه سيسبق أدهم بالخطبة وأبيه رجل محافظ صارم لا يحب الخروج على القواعد والأصول، ويقدس التمسك بالعادات والتقاليد؟.. اختنق صدره بمجرد التفكيرفي هذه الأمور.

اتجه إلى غرفة أدهم طرق بابها ثلاثاً استأذن ثم دخل وجد أدهم لا زال يغط في نومٍ عميقٍ

-أدهم.. استيقظ أريد.. أن أتحدث معك.

-قال أدهم بصوتٍ ناعسٍ:

-ما الأمر؟

-لا شيءَ، قم وتحدث معي.

-فتح أدهم عينيه ببطءٍ قائلاً:

-سأتحدث معك في اللاشيء هذا عندما أستيقظ..ثم وضع الوسادة مرة أخرى على عينيه ورأسه.

-جذب أحمد الوسادة بقوةٍ قائلاً:

-أدهم أنا لا أمزح.. إنني قلق بشأن أبيك، أخشى أن يرفض الأمر، الفتاة طيبة وخجولة أخشى ألا يكون الحوارفي صالحها.

-اعتدل أدهم في جلسته قائلاً:

-لا تخش شيئاً، سأقنعه أنا.. لكن أواثق أنت من أخلاقها؟

-نعم، واثق وبشدةٍ.

-لا تنس أنها تربت هنا، ونشأت هنا.. ثقافتها مختلفة وفكرها قد يكون متحرراً.

-قلت لك مراراً الفتاة محجبة رغم نشأتها الفرنسية الصرفة، وتفكيرها متزن جداً.. واطلاعها واسع، ثم ما الذي يجبرها على ارتداء الحجاب في بلد كفرنسا؟.. ألا يوحي هذا برجاجة عقلها، وقوة إيمانها، وتمسكها بدينها.

-ما دمت واثقاً أنت من كل هذا، فما الذي يقلقك؟

-أبوك رجل شرقي يتفاخر بالنسب والعائلة.. لكم ترفعنا عن بنات زملائه حتى بنات الوزراء منهن.. ومن الطبيعي أن ينزعج من فتاة عادية لا تعلم عن أبيها شيئاً؟!

نظر إليه أدهم بانزعاج قائلاً:

-وهل فعلاً الفتاة لا تعلم عن أبيها شيئاً؟!!!!

-أخبرتني أنها تنتمي إلى بلدٍ عربي.. وجاءت أمها بها إلى هنا قبل ولادتها بعدة أشهر.

-قصة عجيبة ولم يكد أدهم يتم جملته حتى فُتح باب الغرفة في عنف، لم يكن الواقف سوى أبيهم، نظرا إليه في استغرابٍ.. لكن الأب تحدث بسرعة قائلاً:

-أنا مسافر إلى مصر حالاً.

قالا في صوتٍ واحدٍ:

-مصر!!

-اتجه الأب صوب الباب وهو يقول

الوزير محمود الشرقاوي طالته يد الإرهاب الغاشمة.. لا بد أن أكون هناك.

اجتاز أدهم السلم وراءه في خطواتٍ سريعة قائلاً:

-يمكننا أن نسافر ليلاً.. لدينا لقاء.

قال أبوه دون أن يلتفت إلى الخلف :

-أنا أثق برأيك.. قم بما ينبغي فعله.. من العار أن أكون هنا أخطب لابني بينما صديقي يصارع الموت هناك.

تنفس أحمد الصعداء، كان يخشى هذا اللقاء بحق، لكن ليس إلى هذا الحد.. ليس لدرجة أن يلغي اللقاء تماماً.. جلس على أقرب مقعد، ووضع يديه على رأسه مفكراً في صمتٍ.

قال أدهم في لهجةٍ واثقةٍ:

-لا تقلق سأتولى أنا الأمر.

حقاً؟

-نعم.. أخبرني أبوك بذلك.

بعدما انصرفت نسيم إلى شقتها، قامت أروى بترتيب بعض أغراضها.. تذكرت أنها لم تعد تتابع الأمور في مصر.. انشغلت بدراستها وحياتها هنا، قامت بفتح التلفازوياليتها ما فعلت.. لم تكن تدري وهي تفعل ذلك أنها كمن ينزع طابة الأمان عن قنبلة ستنفجر في وجهه!!

بمجرد أن أدارت التلفازعلى أحد المحطات المصرية حتى وجدت العنوان المسيطرعلى نصف الشاشة " يد الإرهاب الغاشمة طالت السيد الوزير محمود الشرقاوي في حادثٍ أليمٍ"

لم تستوعب ما قرأت.. أعادت قراءة العنوان مراراً لعلها تكون مخطئة في الاسم، لكن بكل أسف كانت هذه هي الحقيقة المرة.

وفي سرعة البرق ارتدت ملابسها واتجهت إلى المطار متخذة أول طائرة إلى مصر، كان عليها أن تنتظر ساعة ونصف في المطار قبل تحرك الطائرة، كانت ترتجف بقوة ودموعها منسابة كأنها أنهار، هي لا تعلم ما الذي حل بأبيها، هل توفي بالكلية، أم أنه لا زال يصارع الموت، لم تستطع التواصل مع أحد، كل الأرقام مغلقة وكل الهواتف مشغولة، لماذا لم يتصل بها أحد، لماذا لم ترسل السفارة في طلبها.

فور وصولها مصر اتجهت إلي المنزل مباشرة.. أعصابها منهارة، وحالتها الكلية في شبه إغماء لا تستطيع أن ترى المنزل يمتلئ بالمعزين الذين يترحمون على الفقيد، أغمضت عينها في ألمٍ وكأنها تمنع عقلها من الاسترسال في تخيل هذه الأمور.

ولحسن الحظ وقبل أن تصل إلى المنزل دق هاتفها، كان المتصل مستشار والدها، أملاها عنوان المشفى الذي يقطن به أباها، وبمجرد وصولها إلى المشفى وجدتهم في انتظارها، اتجهت من فورها إلى الغرفة الخاصة به، وجدت زحام أمام الغرفة، وحراسة أمنية مشددة لم يكن مسموحاً لأحد بالدخول فحالة الوزير متأخرة وغير مستقرة.

أجلسوها على أقرب مقعدٍ، كم تمنت لو كانت معه الآن في هذه الأوقات العصيبة، هي الرقيقة المرهفة التي لا تستطيع أن ترى طيراً أو حيواناً جريحاً، فكيف لو كان الجريح هو والدها، آخر مَن تبقى لها في هذا العالم.

لم تمضِ بضع دقائق حتى دخل رجل الأعمال الدكتور " كمال النشار" الرجل الوحيد الذي تطمئن إلى حضوره، والوحيد الذي تثق به في هذا الوسط

المنافق الكاذب الذي يحيط بها، اتجه الرجل إليها مباشرة، جلس بجوارها ثم قال بصوتٍ واثقٍ:

-لا تقلقي يا ابنتي سينجيه الله.. مَن أعلمكِ الخبر؟

-قرأته على شاشات التلفزيون.

-متى عدتِ من الخارج؟.

-قبل ساعةٍ واحدةٍ فقط.

-لا حول ولا قوة إلا بالله.. شفاه الله وعافاه، وقبل أن يتم كلماته خرج الطبيب الخاص بإجراء العملية من الغرفة.. تحلق الجميع حوله، وأنفاسهم مكتومة، ونظراتهم متوسلة حتى لا يقول إلا خيراً.. لكن الطبيب خيب كل آمالهم قائلاً:

-استطعنا بأعجوبة أن ننزع الرصاصة رغم أنها كانت في موقع القلب تماماً، إلا أن هيئته الطويلة جعلتها على بعد مليمترات من القلب[1]

لكن الانفجار هو الذي تسبب في سوء حالته.. سأكتب التقرير الطبي ثم أطلعكم عليه.

جاء التقرير الطبي ولم يكن يوحى بشيءٍ سوى وفاة المريض خلال الساعات القليلة القادمة، فالمريض مصاب بتهتك ونزيف بالحويصلات الهوائية بالرئة، ونزيف وانفجار بالجهاز الهضمي، وحروق نارية، وإصابات بالشظايا المتناثرة للقرب من لهب الانفجار، وكسور شرخية بالجمجمة نتيجة السقوط، وخلخلة بالسائل الشوكي وتمزق في الأوعية الدموية.

لم تستطع أن تكمل قراءة باقي التقرير.. ماذا إن فقدت أباها؟ لا أهل لها ولا أقارب، ينحصر العالم كله في شخصه، قبل أشهرٍ قليلةٍ ودعت أمها.. لعله اشتاق إليها هو الآخر فقرر الذهاب إلى حيث يجدها.

---

[1] _ حقيقه علمية فالقلب ينحرف إلى اليمين قليلا عند الأشخاص طوال القامة.

رحل الزائرون وانصرف الجميع، ولم يبق إلا جنود الحراسة ودكتور " كمال النشار".. رغم ما بها من وهنٍ وما ألم بها من مرضٍ، حاولت أن تتماسك، واتجهت نحوه، تمتمت ببعض الكلمات التي يُفهم منها أنها تشكره على زيارته، وتطلب منه الانصراف فهي لا تريد أن تثقل عليه أكثر من ذلك.

رفع حاجبيه في استنكارٍ قائلاً:

ما هذا الذي تقولينه يا ابنتي؟.. إن أباكِ بمثابة أخي.. لقد كنا زملاء دراسة، منذ الصغر ونحن نجلس في مقعد واحدٍ.. حتى كبرنا وتزوجنا، وألهتنا الدنيا عن طفولتنا البريئة، وأيام الصبا الطيبة، لكن منذ أن جئتم للسكن بجانبنا، ونحن تداركنا الأمر، وعاد الأخوة إلى بعضهم.. لن أخرج حتى أطمئن عليه.. بل من الواجب أن أطلب منكِ أنا الرحيل فأنا الرجل هنا، ثقي في يا بنيتي.. وعندما يفيق أبوكِ سأرسل في طلبكِ.. سائقي أمام المشفى سأطلب منه أن يوصلكِ .

-لا لا.. لن أذهب أريد أن أراه، فارقته منذ عدة أشهرٍ ويا ليتني ما فعلت.. شعرت بدمعات ساخنة تهبط على وجنتيها مسحتها برفق واتجهت أمام باب الغرفة، علها تسمع صوته أو حتى أنفاسه.

بعد بضع ساعات أفاقت من نومها ويد إحدى الممرضات تهزها برفقٍ قائلة:

-سيدتي سيادة الوزير يريدكِ حالاً.

انتبهت من غفلتها منزعجة، واتجهت نحو باب الغرفة

وجدت الدكتور " كمال" بالداخل يقف إلى جانب الفراش، ويستمع إلى كلماته المتقطعة، وأنفاسه اللاهثة لم تفهم شيئاً مما سمعت، ولم يعنها الفهم الآن.. اقتربت منه وركعت على الأرض بجوار الفراش مباشرة.

وضع يده على يدها برفقٍ قائلاً بصعوبةٍ:

-اهدئي يا ابنتي.. سأكون بخيرٍ هناك، ماذا وجدنا في هذه الدنيا حتى نتمسك بها.؟.. حاول جاهداً أن يرسم ابتسامة على شفتيه ثم قال:

-لو علمت أن حادث مثل هذا هو الذي سيعيدكِ إلي مصر لدعوت الله بحادثٍ مثله منذ زمنٍ.. لقد اشتقت إليكِ كثيراً.

سقطت من عينها دموع القهر، وأصبحت تمرغ وجهها في كف أبيها.

نزع يده برفقٍ وأخذ يتحسس شعرها في حنانٍ وجهدٍ أيضاً قائلاً:

-أنتِ صادقة يا بنتي وصاحبة رسالة.. لا تتخلي عن قضيتكِ حتى لو أصبح الموت عقاباً لكِ.. دافعي عن رسالتك "فالمحاماة رسالة، والقضاء والشرطة هم أصحاب سلطة فإذا توغل أصحاب السلطة على أصحاب الرسالة.. فأبشري بانهيار العدالة، واعلمي أنكِ في دولةٍ قمعيةٍ لا تقدس شيئاً إلا روح الحاكم".

استمري فيما أنتِ فيه.. دافعي عن البسطاء فقط، وإياكِ أن تتخلي عنهم، أو تخذليهم، صديقتكِ بريئة لن أقول افديها بروحكِ لكن افدي العدالة بروحكِ.. وإن شعرتِ أنكِ لست جديرة بهذا الرداء الأسود فاخلعيه، واتركي له أهله، إما أن تكوني مدافعة بشرف وعدالة وإلا فلا.

تقطع صوته وغارت عيناه وسعل في ألمٍ، التفت إلى الواقف بجواره، ثم قال بصوتٍ متحشرجٍ وكأنه لا يفارق صدره فضلاً عن شفتيه قائلاً:

-لم يقتلني أحد.. الدولة هي التي فعلت، أوصيك بأروى وعمتها وابنة عمتها، إن كانتا على قيد الحياة.. ابحث عنهما حاول أن تنجح فيما فشلت فيه أنا.. لن أقول لك عامل أروى كابنتك فأنت أدرى الناس بما فعلته بابنتك.. لا تغضب مني لكني أخشى عليها.

-سامحيني يا ابنتي كنت أود أن أظل لكِ سنداً في هذه الدنيا البغيضة، لكم تمنيت أن أزفكِ بيدي وأن ألبسكِ تاجكِ بنفسي وأسلمكِ لزوجكِ بيدي.. اغفري لي تسرعي.. ابتسمي يا ابنتي أريد أن أودع الدنيا، وآخر شيءٍ قد رأيته منها هو ابتسامتكِ، فبسمتكِ هى جنة الدنيا، ولعل الله إن فعلت يبعثني على جنة الآخرة.

افترثغرها عن بسمةٍ مفتعلةٍ تصحبها بقايا دموعٍ سائلة على خديها لكن الرجل بادرها مازحاً:

-أهذه هي الضحكات التي أردت ؟!

حاولت أن ترسم على شفتيها ابتسامة عريضة خالصة، لكن دموعها هزمتها أيضاً هذه المرة.. ربت أبوها على كتفها في رفقٍ.

دخل الطبيب المختص، وطلب منهما الخروج حتى لا يجهداه أكثر من اللازم.

خرجت من الغرفة مطأطأة الرأس، مكروبة الصدر، جريحة القلب داميته.

في هذه الأثناء اعتدل الأب في سريره ولم يعد يبصر أحس بالعجز أصبح صدره يضيق.. وتعذر عليه التنفس كأنه غريق.. جحظت عيناه وحاول أن يلتقط أنفاسه، لكنه كان عاجزاً عن كل شيءٍ إلا الارتجاف، وأخيراً انتهى العذاب، وفقد الإحساس بكل شيءٍ، سكنت أنفاسه، وتصلب جسده، وبردت أطرافه، وأضحى لا شيء بعد أن كان يمثل لها كل شيءٍ.

من يصدق أن يموت هذا الجسد القوي، والوجه النضر، والثغر الباسم، والعينان الضاحكتان المتلألئتان، مَن يصدق أن يقبع أبوها ذاك الوزير المعروف بحسن الخلق، والقوة في الحق في حفرة رطبة مظلمة بباطن الارض مسلوب الحركة، فاقد الحياة ليصبح أثراً بعد عين.. مَن يصدق أن هذا

الجسد الفارغ سيصبح جثة لا حياة فيها ولا روح.. فجأة سكنت هذه الأجهزة وتحرك الرأس مائلاً إلى اليمين.

اندفع الأطباء داخل الغرفة وهي من خلفهم.. حاولت الممرضات حجزها لكنها أفلتت من بين أيديهن إلى الداخل صائحة:

-أبي.. أبي، قم يا أبي لقد عدت من أجلك.. هل جئتك كي تتركني فلتفق من أجلي؟ مَن الذي سيؤنس وحدتي بعدك؟ كانت تهز جسده بقوة.. في حين أن الجسد، ثابت ساكن مُمد بكل ثباتٍ ووقارٍ مغمض العينين.. أما هي كانت ترتجف بشدة، وتحاول أن تحركه كأنه نائم، وتريد إيقاظه.. نفذت طاقتها، وقعت على الأرض بجانب سريره.. وصيحاتها ترن أجواز الفضاء ربتت على كتفها إحدى الممرضات، وقالت وصوتها يقطر إشفاقاً:

-كفي يا حبيبتي إنه قضاء الله.

-لم ترد، فقط تذكرت جثة أمها المغطاة في مثل هذا المكان من قبل تذكرت الضياع بلا أمل.. والذهاب بلا عودة .. والفقد بلا رجاء.

-أصابتها رجفة شديدة واندفعت إلى الجسد المسجى قائلةً بصوتٍ مبحوحٍ:

رد علي يا أبي.. قل إنك ما زلت حياً، ليتني لم أتركك، قم من أجل زفافي.. من أجل أن تلبسني تاجي بيديك قم نتقاسم عمري معاً.

أحس الأطباء وطاقم التمريض وجنود الحراسة بالدمع يترقرق في مآقيهم وهم الجافو المآقي.. الجامدو الشعور المتعودون على مناظر الموت وما شابه.

أمسكت بها إحدى الممرضات، ووضع الطبيب الغطاء الأبيض على جسد المريض ووجهه.. أفلتت من بين يدي الممرضة بقوة واندفعت تجاه الغطاء تزيحه.. بدت معالم وجهه تشع حسناً ونوراً وقسماته هادئة ساكنة..

أيقنت أنها النظرة الأخيرة.. فما تمالكت نفسها إلا وهي تضمه إلى صدرها وتقبل جبينه حتى سالت دموعها على خديه.. اقتربت من أذنه وقالت في صوتٍ واهنٍ:

- صدقني يا أبي قريباً سنلتقي عسى الله أن يجمعني بك في جنته.

خرجت من الغرفة مستندة على أحد الجدران، لم يعد لها سنداً بعد الآن سوى هذه الجدران التي لا تسمع ولا ترى ولا تشعر.

جفت مآقيها لم تعد تبكي، لكن لسان حالها يقول:

فقدان الأب وبكل المقاييس ليس بسيطاً.. أن تفقد أباك معناه أن تفقد الجدارالذي تستند عليه وتركن إليه.. فقدان الأب يعني أنك أصبحت ريشة في مهب الريح لا ترحم مَن هم أمثالك.. أن تفقد أباك معناه أن تفقد المظلة التي تحميك من المطر، والسماء التي تجود عليك بالحب والحنان.. أن تفقد أباك ليس معناه اليتم فقط، بل أن يعرف من يتعامل معك أنك أصبحت وحيداً أمامه، وربما أمام طموحه ومطامعه.. فقدان الأب يعنى أن تحس بالوحدة فقد فقدت من يمد يده ليساعدك، ولو مدت لك ألف يدٍ، فإنها لن تغني عن يد والدك المليئة بدفء الأبوة والحب والحنان دون مقابل.. من الآن تركها رفيقها الوحيد ليحل مكانه الألم الدائم، والحزن العميق، والشعور بالضياع والوحدة والفراغ.

بعد الوفاة بدقائق بدأ الرجال يحضرون والمكان يزدحم شيئاً فشيئاً.. هي كالمغيبة عن الوعي وكأنها وفاة شخص آخر غير أبيها، من هول الصدمة لم تستطع البكاء، لم تعد تذرف دموع الوجع، ظلت مصدومة منبهرة بما حدث.. رأف دكتور كمال بحالها اتجه إليها قائلاً:

-البقاء لله يا ابنتي.. أخذ يهدئ من روعها ويذكرها بالله، أخبرها أن إجراءات الدفن ستبدأ من الآن.

بدأ الممرضون من حولها يتحركون منهم من يحمل قماشاً أبيضَ، ومنهم من يحمل الجسد متجهاً به إلى غرفة أخرى.

عجباً لهذه الدنيا، أأبوها حقاً هو الذي تعد له كل هذه الإجراءات الرهيبة؟ لقد لطمها الزمن شر لطمة، كانت تلوذ بحضنه وتفر إليه كلما قست عليها الدنيا.. إلى حضن مَن ستفر؟ وإلى كلامِ مَن سترتاح؟ عاودت البكاء والنشيج، لكن بصمتٍ مطبقٍ.. أبصرت الصندوق وهو يدخل إلى الحجرة التي يوجد بها المتوفى ليخرج بحمله الثمين، الضائع المفقود.. وقفت في ذهولٍ، ثم لم تعد تبصر أي شيءٍ.

(١٠)

لم يحبنا العالم

سأروي لكم قصتي عسي الله أن يخفف بها آلامكم وينفث بها كربتكم، أتذكرون قصة أصحاب الغار الذين سقطت عليهم صخرة فأغلقت بابه حتى كادوا أن يهلكوا جوعاً وعطشاً، وأوشكوا أن يموتوا اختناقاً؟.. كانت لهم أعمال صالحة فنجاهم الله بها، أما نحن فألهتنا الدنيا، وأراد الله أن يردنا إليه رداً جميلاً وأراد أن يختبر صبرنا، فلنصبر خمسة وعشرين عاماً، ألم يقل الصابر أيوب لزوجته مكثنا في الرخاء سبعين عاماً فلنصبر في الشدة سبعين أخرى.

قبل أن آتي إلى هنا بأيام قليلة حددت موعد زفافي.. اشتريت فستان زفافي الأبيض.. وكذلك اشترى زوجي بذلته.. حجزنا قاعة العرس .. جهزنا كل شيءٍ في بيتنا الجديد..وبعدما انتهينا من التجهيز للعرس خرجت لأبلغ صديقاتي بموعد الزفاف، اتصلت بهذه لأبلغها، وزرت هذه لأسلمها بطاقة الدعوى.. إلى أن انتهى اليوم، لكن كان هناك شيء غريب لم أعتده، فزوجي لم يتصل بي على غير العادة، فقد اعتدت أن يحدثني كل يوم قلت في نفسي ربما انشغل عني هو الآخر بإبلاغ أصدقائه، هممت بالاتصال به وكررت ذلك مراراً دون جدوى.

بعد ساعة ونصف تقريباً، أتاني اتصال من أخته كانت منهارة تماماً، لم أفهم ما تقول، فوجئت بأبي يدخل من الباب ووجهه أسود كالليل.. تركت الهاتف وسألته ما الذي حدث؟

قال بهدوء:

-زوجكِ قبض عليه إلى غير عودة، تركت الهاتف من بين يدي فهوى على الأرض محطماً، كذلك هوت روحي التي بين جنبي، أيضاً تحطمت فتاتاً هي الأخرى.

زرته في السجن مراراً ضد رغبة أبي وأخي.. في بداية الأمر كان ينزعج من حضوري، كان لا يزال يحتفظ بقوته ورجولته أمامي، كان يشعر أن وجوده هنا سيجعله صغيراً في عيني وأنا التي لطالما عهدته كبيراً قوياً.. رجلي الأول وسندي من بعد أبي.. ظللنا هكذا حتى جاء الحكم الجائر "إعدام" كانت صدمة لنا جميعاً، قسمت ظهورنا.. وفتت أرواحنا.

رفع أبي علينا الحصار في البيت، ومنعني من زيارته، وأرسل لأهله حاجياتهم .. كنت أشفق على أمه وإخوته، وأخشى أن يبلغوه بالأمر، فيتوهم أنني تخليت عنه أنا الأخرى، بدأنا في إجراءات الطلاق.. كانت فوق تحملي.. طلقت من حبيبي الذي لم أتزوج منه أصلاً ولم أزف إليه بعد.

كانت آخر زيارةٍ بيني وبينه بعد طلاقنا بأيام قليلة رأيته يقف خلف القضبان منهك القوى، غائر العينين، دائم الصمت، أراه قد شاب وهو في منتصف العشرين، أو أنه قد تجاوزها بقليل، لم يعد قادراً حتى على الوقوف لفترةٍ طويلةٍ، يقف مرة ويجلس مراتٍ ومراتٍ.. حاولت أن أشرح له الأمر، وأن أحدثه لكن هربت مني الكلمات وخانتني ذاكرتي، ولم أستطع الكلام فبكيت.. حاول أن يخرج يده من بين القضبان ليمسح دموعي، لكنه أعادها في منتصف المسافة بين وجهي ويده وكأنه تذكر أنني أصبحت لا أحل له .. انفجرت باكية، قلت له ودموعي تسبقني أنت زوجي وستظل هكذا حتى وإن مزقوا مواثيقهم الكتابية فلا زال ميثاق قلبينا غليظاً ممسكاً بنا معاً.. دعك منهم إنني أنا ليلى زوجتك أنسيت هذا؟!

الله قادر أن يخرجك من هنا من أجلي، أنا الضعيفة المكسورة التي لا تملك من أمرها شيئاً.. من أجل زفافنا الذي طالما خططنا له..من أجل أحلامنا التى رسمناها معاً.

ظل صامتاً لم يتكلم، وأخيراً انحدرت دمعة على خده، ولأول مرة أرى دموعه، مسحها في خجل واقترب مني ليودعني قائلاً:

-"سامحيني على ما لم أحققه لكِ من أحلامٍ".

حينها تمنيت أن يقف الزمن ونحن هكذا، لا أرحل أنا ولا يرحل هو.. وأخذ صوته يعلو وهو يبتعد قائلا :

"لا أريد منكِ سوى الدعاء.. أستودعكِ الله"

بعدها بأيام قاموا بتطبيق حكم الإعدام.. لم أكن أعي ما حدث كنت واثقة بأن الله سيعطف على قلبي المنفطر ويبرئه من أجلي، كنت أدعو له ليل نهار وقلبي مشتعل لفراقه، حتى قبل أن يقدم إلى منصة الإعدام بدقائق كنت أنتظر المعجزة التى ستنجيه ..لكن الله لم يفعل! وله في ذلك حكمة.

بعد وفاته مباشرة أصبحت كاللبوءة التى أخذوا منها صغيرها الوحيد.. ثرت وعربدت، وقفت أمام الظلم وقلت لا، لن استسلم، إما أن يعيدوه إلي..أو ألحقه أنا.. وكانت الثانية- سألحقه إن شاء الله قريباً-.

قمت بحكاية قصته على مواقع التواصل الاجتماعي، والنشر عنه ظللت أسب في النظام وألعن، لا أريد شيئاً سوى أن أعلم ما هي تهمته، لمَ تم تلفيق مثل هذه التهم لهذا العريس الذي لم يكن يشغله شيء سوى التجهيز لزفافه؟ حذرني أبي مراراً لكني لم أنتبه.. كان الموت والحياة عندي سواء، لم أعد أكترث لشيءٍ فقد قتلوني معه.

وها أنا أعد الأيام والدقائق والثواني هنا، ليس لأخرج ولأستنشق نسيم الحرية.. بل لأذهب إليه هناك عند رب حكيم عادل، لا يظلم عنده أحد.. لقد اشتقته بشدة، ولم يعد هناك سبيل إليه سوى الموت.. إني لم أستطع أن أبقيه ولكني أستطيع شيئاً آخر.. أستطيع أن أذهب إليه بسهولة.

أجل هذه هي وسيلتي الوحيدة كان هو كل حياتي وقد رحل فما الذي يبقيني.

أنا مقبلة على الموت بكل قوتي.. أتخيل أنني بمجرد أن أموت، وأصبح في جوارالله سيجود الله علي به.. هو الوحيد الذي يعلم مدى الألم.. يعلم حال قلبي الذي أكله الفقد، وهده الظلم.

أحياناً أحس أنه سيكون في استقبالي، نعم في استقبالي فأنا حبيبته.. وسأزف إليه على أيدي الحور العين وسيكون مسكني بيتاً بالجنة، حتى لو عشت بصحراء مقفرة، ما دام هو هناك فهي بالنسبة إلي جنة مزهرة.

لكن الشيء الوحيد الذي ينغص أحلامي تلك هو خوفي على أهلي، وعلي كل الذين أحبهم.. هل تصدقون أنني أتمنى أن آخذهم معي لله حيث الحق العدل والرحمة؟ أخشى على أبي الذي لم يقسو علي إلا لأنه يحبني، أخشى على إخوتي البنات أن يصيبهن ما أصابني.. أخشى على أخي أن يحدث له ما حدث لزوجي.. مسحت دمعة ترقرقت في عينها ثم قالت:

-آخر مرة رأيت أمي فيها كانت منذ عامٍ ونصف.. أتت على كرسيها المتحرك وقد بلغها الكبر، وأصابها الوهن، أتت رغماً عن السرطان الذي أنهكها لرؤيتي بالسجن، لا تعلم لي خطيئة، ولا تعلم لما حرمت رؤياي؟ ولماذا جعلوني بعيدة عنها في أحلك أيام مرضها؟.. كانت تعد الأيام الباقية لتحضر حفل زفافي،فما الذي حدث؟

جاء بها أبي على الكرسي عندما بكت وطلبت رؤيتي رغم نصح الأطباء بملازمتها الفراش.

أبي كتب لي ورقة بالكاد قرأتها بين أسلاك قفص الإتهام مكتوبة عليها جملة من ثلاثة كلمات فقط

"سامحيني يا ابنتي" .

لا أدري لماذا كتب ذلك؟ لكن لم يجبنا العالم.. ماتت أمي ولم أستطع وداعها.. وحكم علي بالإعدام بتهم لا أدري عنها شيئاً، سامحني أنت يا أبي فالأيام الباقيات قليلة، أتمنى رؤيتك قبل أن أرحل.

كن يستمعن لها بإنصات، ودموعهن تسيل في ألمٍ وشفقةٍ ، هيجت حكايتها مشاعرهن ذكرت كل ذي ألمٍ بألمه، وكل ذي فقد بفقده ، ضاقت صدورهن بشدةٍ حتى ما عاد هناك متسع لأنفاسهن .

ظلت تغدو وتروح بالحجرة، هي لا تعلم ما الذي تشعر به، هل هو الحنق على أروى والغضب منها؟.. أم هل هو القلق عليها؟ أم هل هو الإرتباك والخوف من اللقاء بأهل أحمد؟مشاعرها متضاربة، وأعصابها متوترة وتفكيرها مشوش مشتت.

وكانت أروى الحصن الذي تلوذ به، وتلجأ إليه بعد مرض أمها، عند هذه النقطة تحديداً أصابها إحساس السخط على أروى، وتمنت عدم وجودها من البداية.. من الآن يجب أن تعتمد على نفسها، وأن تواجه حياتها بمفردها كفاها استناداً على الغرباء، وارتكازاً على الآخرين.

من البداية وحالة أروى توحي بأنها تفضل الغياب على التعلق تفضل أن توئد الحب في مهده قبل أن يكبر.. تنهدت بعمق، ورغم حنقها عليها رفعت كفها إلى السماء داعية من كل قلبها قائلة:

يارب احفظها أينما كانت واحرسها بعينك التي لا تنام نظرت في ساعتها وجدتها السادسة والنصف باقي على ميعاد اللقاء ساعة ونصف فقط ماذا لو اعتذرت؟ ما الذي سيقوله عنها والد أحمد؟

ما الفكرة التي ستطبع في ذهنه عنها ؟ لا شك سيقول مستهترة لا تراعي المواعيد، ولا تحترم الوعود، ولا تقدس خصوصيات الناس.

آثرت الذهاب وليحدث ما يحدث لماذا تعطي هذا الأمر كل هذا القدر من التفكير؟.. إن كسبت الرجل في صفها فهذا خير، وإن لم يحدث فهي لا تملك من أمرها شيئاً، وستترك الأمر كله لله فهو أقدر على اختيار الصواب وتهيئته لها.

توضأت ثم صلت ركعيتن، ارتدت ملابسها واتجهت إلى المكان المتفق عليه..

كان المكان عبارة عن حديقة صغيرة الحجم إلى حد ما وتبعد عن سكنها قليلاً، والمنظر العام لها يبعث بالاطمئنان.. الخضرة المنتشرة ونافورات المياه، وبعض التماثيل الصغيرة، والأطفال الذين يركضون في بهجة وسعادة كل هذا نشر الطمأنينة بداخلها .

سارت في ممر الحديقة قليلاً ثم وقعت عيناها على أحمد وشخص آخر يجلس معه نظرت إلى أحمد نظرة سريعة، والواقع أنه كان حلو القسمات، جميل التقاطيع، ارستقراطي المنظر، يشع وجهه بهجة وحسناً كان يرتدي حلة أنيقة كشفت عن اعتدال قوامٍ، ورشاقة قد، واتساعِ صدرٍ واهتمامٍ بالمظهر مبالغ فيه حتى لكأنه عريس بل هو كذلك، تلك كانت النظرة الخاطفة التي التقطتها عينيها، وكلما اقتربت منه وجدت بدلته محكمة الإغلاق وكأنها قطعة

منه، شعرت وكأنه أحد فرسان العصور الوسطى، وسيطير بها على جواده بعد قليل فها هم هي وهو والخضرة، ولا ينقصهم شيء سوى الجواد المجنح، وبمجرد أن اقتربت منه وقف أحمد وهتف مرحباً بها، أشار إلى الواقف بجواره وقال:

هذا أدهم أخي، ثم التفت إليها وقال موجهاً الحديث لأحمد:

وهذه هي نسيم التي لطالما حدثتك عنها، كادت أن تذوب خجلاً من تصريحه السخيف هذا تنحنح أدهم بادئاً الحوار قائلاً:

معذرة حدثت بعض الأمور التي كانت تستدعي حضور الوالد شخصياً، وتسببت في غيابه عن اللقاء رغماً عنه.

هزت رأسها في تفهمٍ شردت عن حديثه ولسان حالها يقول:

"حمدا لله هذا ما كنت أتمنى"

تحدثا في أشياء كثيرة، فهمت أن أدهم يحاول أن يأخذ صورة مكبرة لعقلها، وأفكارها، وطباعها.. كانت تشعر بالخجل في بادئ الأمر، لكنها بعد ذلك أصبحت تتحدث معه بكل طلاقةٍ، تفكيرهم كان متشابهاً إلى حدٍ كبير.. وهذا منحها إحساس بالثقة والطمأنينة.

بعد لحظات استئذن أدهم، وكأنه ذاهبٌ لقضاء شيءٍ ما ابتعد قليلاً، وجلس يلعب مع بعض الأطفال الموجودين بالحديقة وكأنه طفل منهم.

ران حولهم صمت طويل سببه حياء عقد ألسنتهم.. حاولت أن تنفض الحياء عن نفسها فليس هناك ما يبرره، هذه جلسة شرعية بحتة أقرها الدين، وأكد عليها العرف الإسلامي.. حاولت جاهدة أن تقطع الصمت بحديث ما لكنها لم تستطع.

نظر أحمد إلى أدهم ثم التفت إليها قائلاً:

- أخي لطيف.. أليس كذلك.. منذ لحظات كان يتحدث وكأنه أحد علماء عصره، أما الآن فهو يلعب وكأنه أحد الأطفال!

ابتسمت دون أن ترد.

- ما لي أراكِ صامتة، لعله الخجل.. لا أنا لن أضيع وقتي الثمين في هذا الصمت.. إنها الجلسة الوحيدة التي يأمرني فيها الله بالنظر إليكِ دون قيود.. وبالحديث معكِ دون تحفظات.

- هل لي أن اسألكِ عن هواياتكِ.. أعلم أنكِ من هواةِ الكتبِ، ابتسم ثم قال في خبثٍ مصطنعٍ:

-يبدو أنني لن أسمح بدخول كتابٍ واحدٍ في منزلنا .

-رفعت حاجبها متسائلة:

-لمَ؟

-لأنني شرقي الصفات ،أغارحتى من الكتب!

-خفضت بصرها أرضاً ولم تتكلم.

-ها.. ما هي هواياتكِ الأخرى؟

-أحب الابتكارفي الطهى.

نظر إليها في دهشة قائلاً:

-باريسية، وتجدين الطهي؟!..عندنا في مصريقولون أقرب طريق إلي قلب الرجل معدته!

أجابت ضاحكة:

-وهل تقتنع أنت بهذا الكلام؟

-والله إن كان الطعام عبارة عن "الملوخية المصرية" فأنا أعتقد أن هذا الكلام منطقي جداً.

-ملوخية!!

-أكلة غريبة سأعلمك طهيها فيما بعد .

-وماذا لو كنت أطهوها وبجدارة.

نظر إليها في استغراب قائلاً:

-حقاً؟

-نعم.

-ومَن علمكِ إياها؟

-أمي.. وأنت ماذا عن هواياتك؟

-كثيرلكن أهمهم عندي ركوب الخيل.

- لطيف ركوب الخيل.. حاولت مرارا أن أتعلمه لكن لم أوفق بعد.. وذلك لأنني في كل مرة كنت أخشى السقوط من فوق الحصان.

- هذا لأن معلمكِ كان مدربٌ غيري.. أما إذا كنت أنا المعلم فلن تسقطي.. بمجرد حدوث الخطبة وعقد القران.. سنبدأ المران إن شاء الله.

-سريعاً هكذا؟!

-يبدو أنكِ تلميذة متكاسلة.

-تقريباً، وماذا عن هواياتك الأخرى.

-إنني أحب الرسم وكتابة القصص.

ضحكت ملئ شدقيها قائلة:

-وما علاقة هذا بالطب؟

-لا توجد علاقة.. هل الرسم وكتابة الأدب حكرعلى فئةٍ معينةٍ؟

-لا.. لكن ما دمت تحب هذه الأشياء فلماذا لم تخصص في إحداها؟

-هذه الأشياء لا يحسن التخصص فيها، ولن أستطيع أن أرتزق منها.. في مصرالاهتمام بالرسم والأدب منعدم.. الشعب المصري لا يريد من الدنيا شيئاً

سوى رغيف الخبز. وإن اهتم القليل منهم بالفنون والأدب فهذا ليس شيء سوى أن يقال عنه مثقف!

تطرقا إلى الحديث عن تربية الأبناء، وهل سيستقران في مصر أم في فرنسا . انتهى اللقاء، وعادت إلى منزلها فرحة منتشية كم ودت لو طال اللقاء!.. لقد أصاب القلب ما يمكن أن يسمى بتباشير الحب التي أزالت عنه ذلك السبات العميق المغرق فيه، وأزالت عنه تلك الأغطية السميكة من الحزم والكبت والتربية التي تراكمت فوقه.. تنهدت بعمقٍ.. هي قلقة حائرة بين لذة الإحساس ومتعة الشعور الجديد وبين الخوف من أبيه والرهبة من حالة أمها.. لكنها على كل حال أصبحت تتلهف على لقاء آخر، وعلى حديث أطول وعلى قرب أكثر.

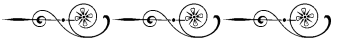

-لماذا عدت مبكراً يا بني، هل تشعر بالإرهاق والتعب؟

-لا.. لكني عدت من أجل أن أخبرك شيئاً آخر.

-ما هو؟

-هل تذكر صديقي عبدالرحمن الذي كان يزورنا في شقتنا القديمة

-نعم، أذكره.

-لقد رأيته اليوم.

-وكيف حاله؟

-بخير.. لقد انتقلوا هم أيضاً من شقتهم، لقد رأيته أمام مدرسته وأخبرني أن أبيه قد توفى.

-لا حول ولا قوة إلا بالله.. رحمه الله، هل هذا ما أردت إخباري به؟

-لا، ما أردت إخبارك به هو أنني عقدت العزم على الذهاب معه إلى المدرسة.

تفاجأ الرجل بقول ابنه، وخيمت على وجهه سحابة من اليأس والكآبة، ولم ينبس ببنت شفة.. ترك الولد في مقعده لا زال ينتظر رده.. استند على أحد الجدران واتجه إلى غرفته دون أن يجيب.

لم يفهم الطفل ما الذي أحزنه هكذا؟.. حمل مناديله واتجه إلى الشارع ثانية.. لابد أن يبيع هذه العلب كلها فاليوم هو آخر يوم له في العمل، سيكون غداً في المدرسة جنباً إلى جنبٍ مع عبدالرحمن.

ظل يتجول في الشوارع، وإشارات المرور لوقتٍ متأخرٍ من الليل دون أن ينجح في بيع نصف بضاعته حتى.. ظل هكذا إلى أن داعب النوم أجفانه.. اتجه إلى المنزل سيبيع باقي علبه غداً في المدرسة، لا بد أن الاساتذة والتلاميذ يحتاجون إليها.

يبدو أن الفكرة أعجبته.. سيذهب إلى المدرسة ويتعلم، ومع ذلك سيبيع مناديله حتى يحصل على ثمن الطعام.

دخل إلي البيت في ساعةٍ متأخرةٍ، كان يظن أن الجميع قد ناموا.. لكن أباه ما يزال متيقظاً، ينتظر عودته، وبمجرد أن سمع صوت الباب يفتح وأحس بوجود الصبي حتى اطمئن عليه، وأطفأ مصباحه وركن إلى النوم.

وفي الصباح استيقظ الطفل مبكراً قبل ميعاد صحوه بساعةٍ كاملةٍ.. توضأ وأدى صلاته في سرعةٍ بالغةٍ وكأنه خشي أن تؤخره الصلاة على المدرسة.. ارتدى قميصاً نظيفاً جديداً إلى حد ما، وكان هذا هو أهم ما في الأمر، أن تخلص مؤقتاً من قميصه الممزق الذي يحمل آثار العمل.

حمل مناديله واتجه صوب المدرسة، لم يجد أحداً من الطلاب أمامها فقد كان الوقت مبكراً.. جلس ينتظر قدومهم.. أخذ الطلاب يتوافدون واحداً تلو الآخر، وأخيراً وصل عبدالرحمن اتجه نحوه في سرورٍ قائلاً:-

-لقد جئت ثانية.

-أجل.. جئت من أجلك.

-من أجلي أنا؟!

-نعم، حتى لا أتركك وحدك.

-وماذاقال أبوك؟

-لم يقل شيئاُ.

-وأين ستنتظرني؟

- ما رأيك أن أدخل معكم إلى المدرسة وأجلس إلى جانبك

تهلل وجه عبدالرحمن وقال فى تمنٍ بالغ:

- حقاً؟

- نعم.

- أمسك عبدالرحمن بيد محمد واتجها إلى داخل المدرسة.. كان عبدالرحمن يقوم بدور القائد، ظل يشير إلى الأماكن ويعلم محمد بأسمائها.

- هذا هو الملعب.. نؤدي فيه الطابور الصباحي، ونلعب فيه أيضًا.. وهذه هي حجرة المكتبة أذهب إليها أحياناً لأتسلى بقراءة القصص، لكنني سئمتها، وأصبحت أفضل لعب الكرة على القراءة.. وهذا هو مكتب المدير....

لم يستطع أن يكمل عبارته فقد دق جرس الطابور الصباحي، اصطف محمد مع الطلاب، لم ينتبه إليه أحد من العاملين بالمدرسة ظل التلاميذ ينظرون إليه في ترفعٍ واشمئزازٍ إلى أن انتهى الطابور، واتجه معهم إلى الفصل، جلس

بجانب عبدالرحمن، ووضع مناديله إلى جانبه على الأرض، لكن مشاكسات الأطفال لم تنته.

وأخيراً، مشى أحدهم متجهاً إلى الأمام، وفي مشيته مد قدميه متعمداً أن يبعد مناديله من مكانها.. قام محمد ليعيد العلبة التي انحرفت عن باقي العلب.. ولكن قبل أن يصل إليها مد أحدهم قدمه فاعترض بها طريقه محاولاً إيقاعه، ونجحت المحاولة، هوى محمد على الأرض فارداً ذراعيه.. تبعثرت العلب وانطلق بكاءه من جراء الصدمة.. وما لبث أن قام متحاملاً على نفسه حتى يجمع العلب التي تبعثرت ودهس الصبية بعضها.

قام عبدالرحمن مندفعاً محاولاً الدفاع عن صاحبه، لكن أحد الصبية ركله في بطنه هو الآخر.. صدرت منه أهة مكتومة، ووضع يده على بطنه ممسكاً بها في ألمٍ.. وهنا علت قهقهة الصبية، ووقفوا يمنون أنفسهم بمعركة وشيكة الوقوع.

عندما رأي محمد ما أصاب عبدالرحمن زال من نفسه كل إحساس بالعداوة تجاه هؤلاء وحل محله إحساس بالشفقة تجاه عبدالرحمن والخوف من أن يكون قد أصابه مكروه.. حاول أن يقوم متعكزاً على قدميه لكن صبي آخر دفع بقبضة يمناه في وجهه فأصابت أنفه، وأحس من الإصابة بألمٍ شديدٍ، وغامت عينه حتى لم يعد يرى شيئاً، وقبل أن يهوي على الأرض حاول أن يستند على أحدهم، لكن الفتى جذبه من ياقة قميصه قائلاً:

- أتريد أن تقع علي حتى تقتلني؟ ثم جذبه من عنقه بقوة حتى استقرت ياقة القميص بيده تاركة القميص وصاحبه، شعر محمد بتمزق قميصه الجديد، قميص الأعياد فقط الذي ضحى بعيده القادم من أجل أن يلبسه في المدرسة، وفي هذه اللحظة التف حول الفصل تلاميذ الفصول المجاورة، وأتى بعض المعلمين ليتداركوا الأمر.. ارتفعت أصوات التلاميذ كل منهم يريد أن يحكي ما

حدث.. وأخيراً ارتفعت يد المدير لتلطم محمد لطمة أسالت الدم من شفتيه، ثم رفع يديه مهدداً إياه من الدخول إلى المدرسة مرة أخرى.

اتخذ طريقه إلى الباب.. ولكنه تذكر أمر المناديل فعاد ليأخذها، ألقاها أحد العمال في وجهه.. نظر إليها في ذهول لم تكن العلب بهيأتها بل كانت علب مقطعة مدهوسة، تركها الصبي خلفه ومضى.

لم يجد الصبي بداً من الانصراف، والدمع ينهمر من عينه، وقطرات الدماء تسيل من شفتيه وأنفه على قميصه الممزق، وقلبه يفيض بالغضب والمرارة وبغض الناس.

لم يعرف بأي وجه سيعود إلى البيت، ولم يعرف كيف ينتقم من المدير والمعلمين.. وهو ضعيف عاجز لا حول له ولا قوة، ظل يضرب في الطرقات علي غير هدى، لا يدري إلي أين يذهب؟ وإلي مَن يشكي؟ ظل يسير ويسير دون توقف حتي وجد نفسه أمام البحر.

كان صغيراً على مثل هذه الأمور، صغيراً على الشكوى لأمواج البحر.. صغيراً على البكاء أمامه.. لم ير من الدنيا غير السواد، نظر إلى البحر فوجد أمواجه تلطم بعضها بعضاً بغير شفقةٍ ولا رحمةٍ.. امتلئ البحر هو الآخر بالظلم حتى فاض على الصخور المتناثرة أمامه.. فالأمواج تضرب فيها هي الأخرى دون أن تكل أو تمل.. والصخور صامدة صامتة لا تستطيع المقاومة أمام قوة الأمواج وكثرتها.. فقط تقبل اللطمات بصمتٍ وصبرٍ وصمودٍ إلى أن تتفت وتتهاوى.

كل شيءٍ يوحي بالظلم والقهر، رفع بصره إلى السماء فوجد السحاب هو الآخر يخفي ضوء القمر.. وكأن الطبيعة اجتمعت كلها ضده، ولم ترد أن تجعله يرى من الدنيا غير سوادها.. تأخر الوقت وتقدم الليل والطفل لا يزال مكانه.. فقد القدرة على التحرك، كيف سيعود إلى البيت، كيف سينظر في وجه أبيه

ثانية، ذلك الأب الذي يعتبره على صغر سنه رجلاً.. ماذا سيقول له ترى هل سيخبره بأنه ضرب، ودهست مناديله وفقد رأس ماله ومصدررزقه.

أما عن الأب، فقد كان قلقاً، لا يدري ما الذي حل بالفتى خرج مبكراً ولم يعد حتى الآن.. شارف الوقت على منتصف الليل، أخبره مراراً وحذره مراراً من التأخير.. هو آخر مَن تبقى من أبناءه.. ترى ما الذي حل به هو الآخر؟.. رفع بصره إلى السماء راجياً من الله أن يرده إليه سالماً.

اتجه نحو الباب وظل يفتحه مراراً، ويرهف السمع عله أن يسمع وقع خطواته على السلم، لكن ما من مجيبٍ.. زاد حزنه، وضاق صدره، وكأن جدران المنزل تطبق عليه.

اتجه إلى الشرفة الضيقة الملحقة بالغرفة عله يتنسم بعض الهواء.. لمحه أحد الشباب الذين يلعبون الكرة بالشارع حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل.. ظل الرجل يغدو ويروح والقلق والاضطراب باديان على وجهه.

لمحه الشاب مرة أخرى، توقف عن اللعب وارتفع صوته قائلاً:

-عم عاطف.. هل هناك شيٌ ما؟

-لا يا بني.

التف باقي الفريق حول الشاب وهم يشعرون أن في الأمر خطب ما، ثم كرروا السؤال هذه المرة بإلحاحٍ.

أجاب الرجل:

-لا شيءَ فقط محمد تأخر على غير العادة وأشعر بالقلق عليه.

-لا تقلق سنذهب كلنا للبحث عنه.

لم يجب الشيخ، فقط تركهم وما يريدون أن يفعلوا.

انقسم الشباب إلى ثلاث مجموعات.. كلٌ منهم سلك اتجاه غير اتجاه الآخرين بعد أن اتفقوا على مهاتفة بعضهم البعض حال العثور عليه.

ظل الشباب يبحثون عنه في الأماكن القريبة، وإشارات المرور، وأماكن تجمع الصبية لكن دون جدوى، وأخيراً قبيل أذان الفجر بلحظاتٍ، اتفقوا على العودة.. لم يرجعوا بشيءٍ، عادوا بخفي حنين فقط.

أخبروا الرجل بأسفٍ شديدٍ ووعدوه أن يعاودوا الكرة في الصباح، علهم يعثرون عليه، فلعل النوم قد غلبه في مكان ما فنام ولن يستيقظ إلا صباحاً.

لم يقل الشيخ شيئاً، لديه أمل آخر.. سينتظر حتى الصباح.. سيدعو الله ألا يصيبه ما أصاب إخوته من قبل.. ما أشبه موقفه بموقف يعقوب عليه السلام.. ظل يناجي الزمن الذي لم يرحم كهولته، ولم يحترم شيبة رأسه، ولسان حاله يقول:

" بل أمنتك عليه كما أمنتك على أخويه من قبل.. تشابهت الأقدار ترى هل ستتشابه المصائر؟!

ترى هل سيجود عليه القدر بقميص يوسف؟ ترى هل سيعود إياد عزيزاً ومعه إخوته؟.

غفا على مقعده واختلط واقعه بأحلامه، رأى إياد عائداً لكن ملابسه ملطخة بالدماء.. رأى عائشة يحيط بها الذئاب من كل جانب، وهي صامتة ساكنة لا تحرك شيئاً.. ثم فجأة يظهر محمد وكأنه رجل عجوز، ظهره مقوس ويستند على عصا... انتبه من غفلته فجأة، تباً لهذه الأحلام البغيضة التي تأبى أن تتوقف، وترغب في زيارته كل يوم.

شعر بتسلل أول شعاعٍ من أشعة الشمس، وتناهت إلى أذنه خطوات العاملين وأصواتهم، اتجه إلى الشرفة ونظر إلي أسفل هو يعلم أنه لا يرى شيئاً

لكنه سيحس به، سينبأه قلبه بعودة ابنه وبوجوده في الطريق.. ترى هل سيكون هذا الطريق هو طريق العودة لكل أبناءه؟

دخل إلى تلك الراقدة، أعطاها دوائها.. سألت على محمد فأنبأها بأنه عاد متأخراً، وذهب مبكراً ..لطالما قرأ قصة يوسف، لكنه لم يقدر موقف " يعقوب عليه السلام " إلا عندما جرب مرارة الفقد.. لطالما قرأ قصة

" إبراهيم" و" إسماعيل "عليهما السلام، لكنه لم يقدر موقف إبراهيم عليه السلام إلا عندما قدم محمد قرباناً على معبد الأسرة، ضحى به من أجل لقمة العيش.. انتزعه من طفولته انتزاعاً، من مدرسته، من أصدقائه.. من عالمه، ومن دنياه حتى مل الولد حياته، وفضل الغياب، ليته يعود سيبيع كل ما يملك حتى غرفة السطح سيتخلى عنها من أجل أن يعيده إلى المدرسة، من أجلِ أن يحقق له مطلبه، سيفعل كل ما يطلب، فقط لو عاد.

(١١)

انتصار الطبيعة

غادر المعزون، وسكنت الأجواء، خفتت الأضواء، وأظلم الليل الكئيب.. الفيلا صامتة حزينة، والليل محيط بها من كل جانب حتى أصبحت للناظر وكأنها امرأة ملتفة في ثوب الحداد.

هل يا ترى ستستطيع أن تدبر أمورها بمفردها؟ هل ستقوم ببيعها وتشتري شقة صغيرة لها؟، لم يكن أبوها مجرد أب فحسب بل كانت تعتمد عليه في كل شيءٍ، لم يخطر على بالها يوم أن تدفع هي رواتب البستاني والسائق والطباخين.

لم تتخيل يوماً أن تحدد هي مواعيد أعمالهم، وأيام إجازتهم.. كانت غرة ساذجة، تحسب أن الحياة تنحصر في مأكلٍ ومشربٍ وملبسٍ ودراسةٍ، أما ماعدا ذلك فلا يوجد شيءٌ يستحق العناء، وقبل أن تتجه إلى غرفتها أنبأتها إحدى الخادمات بأن دكتور كمال النشار يستأذن في الدخول.. هزت رأسها علامة الموافقة.

دخل الرجل والحزن مخيم على وجهه، والأسى يقطر من صوته.. تمتم ببعض كلمات التعزية التي يجب أن تقال فى مثل هذه المواقف، لم تعِ من نصف كلامه شيئاً لكنها انتبهت فجأة، وأصغت السمع لكلامه إذ كان يعرض عليها العيش بمسكنه، وقبل أن تتلفظ بالرفض أشار لها أن تصمت ثم قال:

-أعلم أن أخلاقكِ تمنعكِ من العيش بمسكن كل أهله رجال ولا يحوي من النساء سوى الخادمات هناك جناحان لأبنائي ينفصلون عن الفيلا بعض الشيء، ولا يقطن بهم أحد حالياً، لن أثقل عليكِ وأطلب منكِ أن تعيشي معنا إلى ما لا نهاية.. لكن هذه الفترة فقط حتى تتخطي مرحلة الحداد، ومرحلة الصدمة الأولى، وحتى تشعري أن هناك ثلاثة رجالٍ بجانبكِ.. هنا الوحدة ستأكل قلبكِ وستوهن من عزمكِ ولن يرحمكِ تفكيركِ.

-أعلم صحة كلامك.. لكن أرجوك أن تتركني هنا، أريد أن أظل في هذا المكان الذي قضى فيه أبي آخر أيام حياته.

-يا بنيتي العيش هنا لن يفيد في شيء سوى أن يهيج هاجع الذكرى، وينغض الألم وينكأ الجرح.

-أرجوك اتركني.. لن أبقى هنا طويلاً، سأذهب لأكمل دراستي إنها وصية أبي كما تعلم.

-وأنا معكِ إن احتجتِ لشيءٍ في هذه القضية فلا تتردي في الاستعانة بي.. استأذن ثم انصرف.

وهي كانت تتمنى انصرافه كانت تتلهف على الدخول إلى غرفة أبيها، تريد أن تقبل ملابسه وتتأمل صوره وتدقق في خطه وكتاباته.

دخلت الغرفة، وجدتها كما هي، مكتبته العريضة ومكتبه والأريكة التي لطالما جلس عليها يقرأ لها ويداعبها بعد وفاة أمها.. اتخذت مقعدها وراء المكتب.. تحسست أقلامه.. فتحت أدراج المكتب واحداً واحداً رغم أن الأوراق الموجودة لا توحي بشيءٍ سوى أنها تخص أعمال وزيرٍ.. لم تضع الوقت في قراءتها لكنها ظلت تتأمل إمضائه وكأنها تتعلق حتى بالخط الذي تركه الراحلون .. مجرد حبرٍعلى ورقٍ لا يفيد بشيءٍ، لكن ألم يخطها والدها بنفسه؟ ألم تتحسس

يديه تلك الورقة.. وقعت عينيها على ألبوم صورٍ، ظلت تنظر فيه، هذه صورة لأبيها وهذه صورة لأمها، وهذه لهما معاً، لكن هناك شيءٌ غريب!

امرأة تظهر في معظم الصور وكأنها أحد أفراد العائلة تظهر بجانب أمها مرة وبجانب أبيها مرة.. تأملت الصورة في تأنٍ، ولكنها لم تصل إلى شيءٍ، ترى مَن تكون هذه المرأة؟ أكملت التصفح، وما أثار ريبتها أكثر وجود صورة غريبة جداً تتوسطها هذه المرأة، وإلى اليمين يقف أبوها، وناحية اليسار يقف دكتور كمال ترى مَن تكون؟ وما علاقتها بوالدها وبدكتور كمال؟، ظلت تدقق في الصورة لكنها لم تتوصل إلى شيءٍ، وأخيراً قلبت الصورة فوجدت مكتوب عليها بخط نسائي دقيق

"كل عامٍ وأنت بخيرٍ.. مريم"

ظلت محتفظة بهذه الصورة، ستسأل عنها عندما تهدأ الأمور.

اتجهت إلى غرفتها، ولا تدري لمَ تذكرت نسيم وهي في طريقها إلي الغرفة؟.. شعرت بالحزن من تصرفها المتخاذل تجاهها.. لماذا لم تسأل عنها؟.. لماذا لم تذهب إلى السفارة، وتحاول أن تتوصل إليها؟ لماذا حتى لم تسأل عن الوزير محمود الشرقاوي، أكثر هذا الاهتمام عليها؟

هي التي وقفت بجانبها مراراً، وشعرت أنها أختها، لماذا تخلت عنها في موقفٍ مثل هذا؟.. أطلقت زفرة حارة تحمل الكثير من الألم ما لا يقل عما تحمله بداخلها.. هذه هي الدنيا!!

لم تشعر بالسخط على نسيم، ألم تتخلى هي مسبقاً عن عائشة؟!

ألم تفضل الهروب مع بعض المحاولات الواهية للوصول إليها، لعل نسيم هي الأخرى قامت ببعض هذه المحاولات حتى تحاول أن تسترضي ضميرها هي الأخرى.

أما نسيم فقد اتخذت نفس الموقف، وهي ترى أن أروى قد تخلت عنها في أشد أوقاتها احتياجاً إليها.. وعدتها بالبقاء إلى جانبها، ثم رحلت عنها دون حتى أن تخبرها بوجهتها، ودون أن تقيم وزناً لقلقها عليها.

لمعت في ذهنها فجأة فكرة أن تهاتف صاحب العقار الذي يقطنون فيه، بالتأكيد لديه فكرة عن غيابها، يجب أن تسأله عن مدة الإيجار الذي حددته لعل مدة إيجارها انتهت، وقررت الرحيل إلى أي مكانٍ آخر دون أن تخبرها.. لكن لمَ؟ وما الفائدة من ذلك؟

أمسكت بهاتفها، وبعد لحظاتٍ أجابها المتحدث على الناحية الأخرى:

-مرحباً مَن المتحدث؟

-نسيم.. صاحبة الشقة رقم (٦) بالعقار الذي تملكه، كنت أود الاستفسار عن بعض الأمور.

-تفضلي.

-كنت أود السؤال عن المستأجرة التي تسكن بالشقة المقابلة لي.. لا أعلم ما الذي حل بها؟ اختفت فجأة منذ ثلاثة أيامٍ، أخشى أن يكون أصابها مكروه ما.

-لا داعي للخوف آنستي.. لقد غادرت في وقتٍ متأخرٍ من الليل، وتركت المفتاح مع حارس العقار دون أن تقول شيئاً.. لعلها تقضي عطلة في مكان ما، أو لعلها سافرت إلى بلادها.

-إذن ماذا عن مقتنياتها، هل يمكنني الحصول عليها وحفظها عندي حتى تعود؟

- بالطبع لا، هي استأجرت الشقة لمدة عام، ودفعت مصروفات ذلك، وبعد انتهاء العام سنسلم مقتنياتها لأحد العاملين بالسفارة المصرية هنا.. يبدو

أنها تخصهم في شيء ما.. أغلقت في وجهها جميع الأبواب، لكن في محاولة أخيرة منها، سألته قبل أن يغلق الهاتف، ألا يوجد رقم ما أستطيع أهاتفها فيه؟

- آسف لا أعلم.. يمكنكِ الذهاب إلى السفارة المصرية، والسؤال عنها إن كنتِ تعلمين اسمها بالتفصيل.

شكرته في شيءٍ من الحرج وأنهت معه الحديث.. لا يوجد أمامها سوى الذهاب إلى السفارة، لكنها تخشى هذه الأماكن، هي لم تتعود على المواجهة، ولا على الذهاب إلى هذه الأماكن السياسية البحتة، لماذا وضعتها أروى في هذا الموقف شعرت بالحنق عليها، وبالغيظ يملئ صدرها، واتخذت قرارها الحازم الذي لا رجعة فيه يجب أن تغلق صفحة أروى إلى ما لانهاية، ستعتبر نفسها لم تلتقِ بها يوماً ولم ترها من قبل.

-ماذا فعلتما؟

-نظرأحمد إلى أدهم، وكأنه يتوسل إليه ألا يقول إلا خيراً.

ارتشف أدهم رشفة من فنجان قهوته قبل أن يجيب:

-أصدقك القول فالفتاة طيبة، ويبدو أنها نشأت نشأة سليمة، وتربت تربية سوية، عقلها واسع، وتفكيرها مستنير، تحترم دينها، وتقدس مبادئها.

تهلل وجه الأب لكن تهلله لم يدم إذ استطرد أدهم قائلاً:-

-لكن يوجد مشكلة واحدة.

سأله الأب في استغرابٍ:

-ما هي؟

أجاب أدهم متحاشياً النظر في عيني أخيه:

-الفتاة لا أصول لها، ولا تعرف من أباها؟.

هب الأب واقفاً، وكأن حية لدغته، نظر إلى أحمد نظرة صارمة، وأشار بيديه إلى أدهم كي يصمت

أخذ نفساً عميقاً ثم قال متجاهلاً الموضوع ككل:

-اذهبا إلى فراشكما الآن لترتحا فالوقت متأخر، وغداً بعد عودتكما من الشركة سنذهب إلى ابنة الوزير رحمه الله لنقدم واجب العزاء.

زفر أدهم في ضيق، وأحس أن الأمور تتخذ مجرى آخر لا يطيقه.. الفتاة عادت من السفر وهو سيذهب ليقدم واجب العزاء.. وبالجملة لا بد أن يبدي رأيه فيها، ومن المحتمل أن يكون هناك خطبة كي يرضي والده قبل أن يموت.. هذا الفيلم السخيف الذي مله، والذي يرجو أن ينتهي نهاية محمودة هذه المرة أيضاً.

يبدو أن الأب فطن إلى ما يدور بخلد ابنه، فوضح وجهة نظره قائلاً:

- أدهم، كف عن التفكير في مثل هذه السخافات فقد مللتك، ولن أطلب منك الزواج ثانية، أنت لم تعد صغيراً.

اذهب وقدم واجب العزاء فقط، الفتاة فقدت والدها، وليس لها من الأقارب أحد، ولقد أخبرتها من قبل أني أنا وأبنائي في خدمتها إذا احتاجت شيئاً، دعها تطمئن إليكم حتى إذا غادرت أنا هذه الحياة تشعر أن هناك من يمكن أن تستند عليهم .

هز أدهم رأسه متفهماً ثم قال بصوتٍ راضٍ:

-أمرك يا أبي.

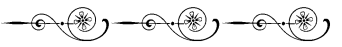

لم تكد عقارب الساعة تشير إلى السابعة صباحاً حتى سمع الشيخ صوت طرقات على باب الغرفة، سار الرجل إلى الباب متحسساً طريقه إليه، وهو يمني نفسه بعودة ابنه، لكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن .

بمجرد أن فتح الباب بادره صوت نسائي ملقياً السلام.

توقف عقل الشيخ لوهلةٍ، ولم يستطع أن يخمن مَن هذه الواقفة أمامه؟ لكنها قطعت عليه عناء التفكير قائلة:

-أنا أم عبدالرحمن صديق طفلكم محمد، خفق قلب الرجل بمجرد سماعه لاسم ابنه، أفسح لها كي تدخل، وقال مشيراً بيده:

-*تفضلي* يا ابنتي.

-دخلت المرأة.. كان المكان ضيقاً، لا يوحي بشيءٍ سوى الفقر والفاقة.. جلس الرجل وارتفع صوته قائلاً:

-آسف يا ابنتي على سوء الاستقبال وعدم الضيافة.

-لا تقل هذا يا عمي فنحن أهل.

- لقد حكي لي عبدالرحمن ما حدث، ويعلم الله أني أحب محمد وكأنه ابني، لم يستطع عبدالرحمن الذهاب إلى المدرسة بعد ما حدث بالأمس فقررت أن آتي به إلى هنا كي يطمئن على محمد، ويعتذر له، فقد كان هو السبب وراء كل ما حدث، لكنها تصرفات أطفال لا يدركون ما يفعلون، والحمد لله أن محمد أخبره بالعنوان من قبل وإلا لما استطعنا أن نعثر عليكم.

-سألها الشيخ متعجباً:

-وما الذي حدث؟!

- ازدردت المرأة ريقها ولم تدرِ بماذا تجيب؟.. فقالت متحاشية الإجابة على سؤاله، وأين محمد كي يطمئن عليه عبدالرحمن؟

- قال الشيخ في صوتٍ واهنٍ:

-تكلمي يا ابنتي، ما الذي حدث فمحمد لم يعد منذ الأمس؟ والقلق عليه قد أكل قلبي.

لم تجد المرأة بداً من الإجابة، وحكت كل ما حدث بالتفصيل، سألها الشيخ:

-وأين هذه المدرسة؟

-إنها قريبة من هنا تبعد عن هذا الشارع عشر دقائق أو أقل.

ارتفع صوت الشيخ مجلجلاً.

-حسبي الله ونعم الوكيل.

علمت المرأة بالقصة كاملة، وتغيب أبناء الرجل الثلاثة، أصابها الحزن والأسى على حال هؤلاء الذين لا يختلف حالهم عنها كثيراً، فهي الأخرى توفى زوجها إثر إصابته في أحد الانفجارات، ذهب إلى عمله باحثاً عن لقمة العيش لزوجته وأبناءه، ولكنه خرج ولم يعد، وذهب حقه أدراج الرياح.

قامت المرأة ورتبت الغرفة.. تركت ابنها مع الرجل ونزلت إلى الشارع لقضاء بعض الحاجيات.. لم تمضِ بضع دقائق حتى عادت وبيدها أكياساً محملة بالخضر والفاكهة، أعدت طعاماً للمريضة.. ظلت دعوات الشيخ وزوجته تطرق مسامعها.

أكلوا معاً، أصابهم شعور وكأنهم أسرة واحدة، لم تجمعهم قرابة ولا نسب.. ولكن جمعتهم المصائب، ووحدتهم الشدة حتى باتوا وكأنهم جسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

بعد انتهاء الزيارة، لم تتجه المرأة إلى بيتها.. ولكن ذهبت من فورها إلى مقر أحد الجرائد، وفي صحف اليوم التالي، بالصفحة الرابعة تحديداً، كان هناك إعلان عن ثلاثة إخوة مفقودين، اختفوا تباعاً فتاة وولدان.. وفي آخر الإعلان

هناك رقم هاتف وعنوان، لمن يستطيع العثورعليهما أو يستطيع الإدلاء بأية معلومات تساعد في العثورعلى أي منهم.

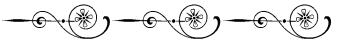

وإذا نظرت في أحد الشوارع الرئيسية هناك لوجدت طفلاً يحمل مجموعة من الجرائد مكدسة فوق صدره كي يكسب من بيعها قوت يومه، وهو لا يعلم أنها تحمل نبأ تغيبه!!

هو لا يريد الهروب، ولم يفضل التغيب على أهله، لكنه فقط يريد أن يعود رجلاً كما عهدوه دائماً، يريد أن يعود بطلاً لا طفلاً مكسور الخاطر.. منهوب الحق.. مهضوم القدر.

ظل هكذا يجوب أركان الشوارع، وقبل منتصف الليل بقليل التقت عيناه بعيني شخصٍ يعرفه جيداً "أحمد عادل" جارهم بالمسكن الجديد.. بمجرد أن رآه تسمرت قدماه، وكأنها ثبتت في الأرض بمسامير.. اتجه إليه الشاب مهرولاً وقال في لهفة:

-محمد.. ماذا تفعل هنا؟ نحن نبحث عنك منذ أول أمس، أبوك مريض، وأمك كذلك، وهم في أشد الحاجة إليك، أمك لا تعلم نبأ تغيبك حتى الآن.

سقطت دمعة من عين الفتى، ودون أن تنبس شفتاه بكلمة أمسك بيد الشاب واتجها إلى المنزل... وبمجرد أن فُتح بابه فغر فاه مندهشاً من وقع المفاجأة.

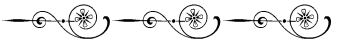

بعد عودتهما من الشركة تناولا طعامهما على عجلٍ.. وقف أحمد وأدهم بحديقة الفيلا في انتظار خروج الوالد منها، وبمجرد وصوله ارتفع رنين هاتف أدهم، قام أدهم بتسكين صوت الهاتف، ولكن يبدو أن المتصل به رغبة ملحة للإجابة.. وارتفع الرنين للمرة الثانية.

انتحى أدهم بالهاتف جانباً، وما هي إلا لحظات حتى ارتفع صوته وظهر التوترعلى ملامحه، توقف الأب ونظر إليه في اندهاشٍ كي يعرف مغزى هذا الاتصال، لكن صوت أدهم ارتفع متسائلاً:

-أواثق أنت من هذا؟

إذن أعطني العنوان، وأخرج أدهم ورقة وقلم ثم خط بضع كلمات.

اعتذر أدهم عن اللقاء في عجالة، ثم اتجه نحو سيارته، وانطلق بها في سرعة البرق، ولم يدرِ أحد أين وجهته؟

استقل أدهم سيارته، وانطلق بها صوب الإسكندرية، أخيراً عثرعلى العنوان، انتظرهذه الخطوة كثيراً..هو لا يشتاق إليها بقدرما يشتاق إلى إنقاذ هذه الأسرة الغريقة التي جارعليها الزمن واعتدى.. الأمرلا يتعلق بكونه متصل بالمرأة التي وقع في حبها بقدرانشغاله بهذا الوالد الكفيف، وبهذه المريضة التي لا تدري أهي حية أم ميتة؟.. ظلت سيارته تنهب الأرض نهباً إلى أن وصل إلى المكان الذي التقيا فيه.. خفف من سرعته وكأنه يتأمل مكان لقاءها، ما أحب هذا المكان إلى قلبه !! وما أعزه على نفسه !!.. تحامل على مشاعره وأكمل سيره بسرعته الجنونية وكأنه يخشى رحيلهم قبل أن يصل إليهم.

ارتفع رنين هاتفه، لم يكن المتصل سوى أحمد، طمأنه عليه، ثم أغلق هاتفه.. أخرج الورقة التي كتب عليها العنوان، ألقى نظرة عليها سريعاً.. يبدو أنه من العسيرالوصول إلى هذا المكان، لم تكن الشقة بشارع رئيسي ولا بمكان مشهورٍ بالإسكندريه كالمكان الذى زارهم فيه سابقاً.. لكن ليست هناك

مشكلة.. سيحاول قدر المستطاع أن يلتقي بهم لو كلفه الأمر المبيت بالإسكندرية، والبدء في رحلة البحث عن الشقة منذ الغد.

-آنسة أروى.. دكتور كمال وابنه يستأذنان في الدخول.

خفق قلبها بشدة.. ترى هل يكون أدهم؟.. كيف ذهب عن بالها كل هذه الفترة الماضية؟ لابد أنه آتٍ ليقدم واجب العزاء.

-دعيهما يتفضلا.. ثم اتجهت إلى المرآة مسرعة، عدلت من حجابها وأدخلت بعض الشعرات النافرة على وجهها.. اتجهت إلى الغرفة التي ينتظران بها، طرقت الباب ثم دخلت، ولكم كانت صدمتها حينما وجدت أن الزائر لم يكن سوى أحمد.. أدى أحمد واجب العزاء.. ثم قدم الأب لها جريدة كان يحملها بيده منذ أن دخل، وأشار إلى خبر مكتوب ببداية الصفحة بخط عريض.

قرأت الخبر في صمتٍ ثم تنهدت في ألمٍ وحزنٍ.. لم يكن الخبر سوى تولي الوزير الجديد منصب أبيها.. أخبرها دكتور كمال أن الوزير سيرسل في طلب بعض الأوراق الموجودة بالمكتب هنا.. وبالتالي سأحضر أنا الآخر في الصباح ليُتخذ هذا الإجراء في وجودي.. شكرت له اهتمامه، ولم تمضِ بعض دقائق حتى كانا في طريقهما إلى الخارج.

أوصلتهم حتى باب الفيلا.. جلست تتأمل في أحوال الدنيا..

خلا الكرسي من أبيها ليشغله وزير آخر.. وسيخلو غداً من هذا الوزير الآخر ليشغله وزير ثالث، وهكذا حلقة مفرغة الكل يدور فيها،لكن دون أن يعتبر أو يتعظ أحد.

أمسكت بالجريدة كي تعيد قراءة الخبر ثانية في شيءٍ من التأني وقبل أن تقع عينيها على الخبر، وقعت عينها علي إعلانٍ آخر عن ثلاثة إخوة متغيبين.. قرأت الإعلان أكثر من مرة في شيءٍ من الذهول.. لكم بحث أبوها عن مسكنهم؟! ولكم منت نفسها بالعثور عليهم؟.. لم تتوقع يوماً أن تعثر عليهم بهذه الطريقة السهلة التي لا تخطر على بال أحد.

هبت واقفة، ركبت سيارتها واتجهت نحو الإسكندرية.. ظلت تسابق الريح، وكأنها في صراعٍ مع الزمن.. داهمتها ذكرياتها الماضية في هذا الطريق، المكان هو المكان، والوقت نفس الوقت.. كبحت جماح مشاعرها ليس هذا وقته، نظرت إلى الجريدة التي تشغل المقعد المجاور لمقعدها، تنهدت في ارتياحٍ، أخيراً العنوان معها حتى وإن ضاعت الجريدة تستطيع أن تبتاع أخرى تحمل نفس العنوان، أوقفت السيارة بضع مرات، واستفسرت عن العنوان من المارة أكثر من مرة وأخيراً وصلت إلى الشارع المقصود.

كان الحي ككل أحياء مصر بأولاده الكثيرين المختلفين في أعمارهم.. يلعبون الكرة أو ما شابه رغم أن النوم يطل من أجفانهم، ويكاد يغلق أعينهم غلقاً.. والنساء جالسة أمام المداخل، وقد تعالت أصواتهن وكأنهن في عراك لا مجرد حديث نسائي عابر.. وهنا ماء مراق تفوح منه رائحة الصابون.. وهناك كلب أو عدة كلاب تفترش التراب في وداعةٍ، رغم أنه شارع واحد، إلا أن مصر كلها تجتمع فيه، مناظر لا توحي بشيءٍ سوى البساطة والطيبة التي يجود بها هذا الشعب الهزيل.

أخيراً توقفت أمام المبنى المنشود.. وقبل أن تهبط من السيارة رأت رجلاً يهبط السلم في عجالة ويوليها ظهره متجهاً إلى إحدى السيارات الواقفة على جانب الطريق، وبمجرد أن وقعت عينها على السيارة ميزتها، بالتأكيد هو، قوامه الفارع، وقده الممشوق، وخطواته الواسعة، إضافة إلى ذلك سيارته،

ترى ما الذي يفعله هنا؟ ترى هل يسعى هو الآخر من أجل تحرير هذه المسكينة؟ ترى هل ما زال يساعد هذه الأسرة المنكوبة؟ أم أنه لم يصل لها إلا اليوم بمساعدة هذا الإعلان؟.. زفرت في هدوءٍ.. ترجلت من السيارة، وبعد بضع دقائق كانت أمام الباب فتحت لها امرأة لأول مرةٍ تراها.. بعد دقائق علمت بقصتها هي الأخرى.

انتهى الأب من صلاته وجلس قبالة أروى، ألقت عليه التحية، واعتذرت عن غيابها بأنها حاولت الوصول إليهم كثيراً هذه الفترة الأخيرة لكنها لم تستطع إلا بمساعدة هذا الإعلان.. لكن الرجل لم يعنفها أو يعاتبها .. وجهه كما هو تزينه الابتسامة، ويريحك النظر إلى وجهه ولحيته البيضاء.

لم تمر بضع دقائق على حديثها مع الرجل حتى فتح الباب، وانطلق محمد داخلاً منه تجاه أبيه، ظل يقبله ويبكي ويعتذر عما بدر منه.. وما هي إلا دقائق حتى امتلأت الغرفة بشباب الحي وبيد بعضهم زجاجات من الشربات فرحا بعودة محمد.. كانت تنظر إلى محمد وهو يقف بجوار عبدالرحمن والرضا يشع من ملامحهما.. ذكرتها صداقتهما بعلاقتها بعائشة سابقاً ونسيم مؤخراً.. تنهدت في ضيقٍ، وفجأة التقت عينها بعيني محمد، فغر فاه مندهشاً ثم اتجه إليها يحتضنها في ودٍ بالغٍ هاتفاً:

-أروى، كيف حالكِ.؟ ماذا عن عائشة؟.. لقد رأيت أخاكِ من قبل لكنه لم يرد علي.. أين كنت طوال هذه الفترة؟ ولماذا لم تسألي عنا؟.. لقد تركت المدرسة، ولكم تمنيت أن أراكِ؟

وضعت يدها على فمه واحتضنته بشدةٍ، أفلت الطفل من بين ذراعيها وقال عيناه تمتلأنِ بالدموع:

-هل ستعود عائشة؟

هزت رأسها أن نعم.

-وإياد؟

-أجل.

-وهل سنراكِ مرة أخرى؟

مسحت دمعة ترقرقت في عينها ثم قالت :

-ستراني حتى تمل مني.

بعد انصراف أهل الحي الذين جاءوا من أجل الاطمئنان على محمد لم تجلس إلا قليلاً.. تبادلت أرقام الهاتف مع هذه المرأة الطيبة ثم استأذنت من أجل اصطحاب الأطفال في نزهة قريبة، وما هي إلا ساعة ونصف الساعة حتى قفلت راجعة، وبيد كل واحد منهم حقيبة مملوءة بالملابس، وقبل أن يخلد الأطفال إلى النوم أخبرتهما أنها من الغد ستذهب بهما معاً إلى المدرسة من أجل إلحاق محمد بها مرة أخرى.

قفز محمد عدة قفزات، والفرح يشع من ملامحه.. لم تشعر بفرحةٍ، ولم تشعر بسعادةٍ كالتي تشعر بها الليلة.. وكأن فعل الخير يجود على فاعله قبل أن يجود على محتاجيه.. هبت واقفة لتستأذن مغادرة، لكن كلمات الأب استوقفتها في خجلٍ:-

-أين ستذهبين يا ابنتي عقارب الساعة تخطت منتصف الليل.

-سأبيت بأي فندقٍ هنا.. لن أغادر إلى القاهرة الآن.

-أي فندقٍ ونحن هنا؟ هذه سبة كبيرة لنا، أعلم أن الغرفة ليست قدر مقامكِ لكنها كل ما نملك، سأبيت أنا بالشرفة وأترك لكي سريري ومحمد سينام بجانب والدته.

رفضت في شيءٍ من الحرج، لكن أم عبدالرحمن قالت باسمة:

ليس هناك خيار ثالث، إما أن تقضي الليلة هنا أو في منزلي.. تعلق عبدالرحمن بثوب أروى فرحاً:

- حقاً هل ستبيتين عندنا؟

لم تجد أروى بداً من الموافقة، ألقت نظرة على وجه محمد الباسم رغم أنه نائم.. حملت الفتاة الصغيرة بدلاً عن أمها وغادرت إلى شقة هذه المرأة الطيبة.

تحادثت معها طويلاً.. حكت لها المرأة أهوالاً.. تارة تبكي وتارة تبتسم أثناء الحديث، وكأنها تعيش الموقف الذي تحكيه.. مسحت المرأة دموعها في شيءٍ من الخجل.. ابتسمت ودموعها تملأ وجهها، وقالت في ابتسامة:

أرأيتِ سوء استقبالٍ مثل هذا؟.. استقبلتك بمآسى قبل أن أرحب بكِ.

-لا عليكِ..هكذا أشعر أنني من أهل البيت.

-بالفعل أصبحتِ كذلك.. أنا وحيدة لا إخوة ولا أخوات إلا أنتي.. أيمكنني ذلك أم معرفة الفقراء معرة؟

نظرت إليها أروى في شيءٍ من العتاب ثم قالت:

-لا تقولي هذا.. بل هل تقبلين أنتِ فتاة مدللة لم تمر بنصف ما مررتِ به أختاً لكِ؟

ضحكت المرأة في شيءٍ من السخرية.. ثم قامت تعد طعاماً.

كان الطعام بسيطاً للغاية، لكن أروى أكلت بشهية حتى شبعت، لم تأكل هكذا منذ أن توفي والدها، ولم تشعر براحةٍ مثل تلك التي شعرت بها الليلة.. صحيح عائشة لم تحرر، وإياد لم يعد حتى الآن، لكن يكفيها الليلة عودة محمد بعد غياب.

تأملت الغرفة التي ستنام فيها يبدو أنها مخصصة لطفلين لكنها احتلتها هذه الليلة.. لوهلة تذكرت نسيم حاولت أن تنفض طيفها من عقلها.. هي غاضبة منها وبشدة، لماذا هانت عليها عشرتهما معاً؟، لم تتصل بها حتى.. هى لم ترغب منها سوى اتصالٍ واحدٍ، لماذا بخلت به؟.. ظلت الأفكار تراودها وطيف نسيم يعبث بخيالها إلى أن أغمض النوم جفنيها.

استيقظت على همسات عبدالرحمن.. نظرت إليه باسمة.. يبدو أنه سعيد بوجودها للغاية، ظل يتحسس وجهها وكأنه يتحسس كنز.. بمجرد أن فتحت عينها، هتف في براءةٍ واضحةٍ:

-كسولة أنتي، سيفوتنا ميعاد المدرسة، هبت جالسة ثم وضعت يديها تحت ذقنها معتذرة:

-لن أفعلها ثانية يا سيدي.

أمسكت بيد الطفلين، واتجهت صوب المدرسة، قامت بسحب ملف عبدالرحمن، والتقديم لهما معاً بمدرسة أخرى مديرها محمود السيرة، وحسن السمعة، وطيب القلب.. ساعدها مركزها على إنهاء الإجراءات بسهولة .. نظرت إلى الطفلين وهما جالسان بجانب بعضهما البعض، والسعادة قد رسمت خطوطها على وجهيهما.. قبل أن تغادر، انحنت وقبلتهم وتخللت أصابعها شعر محمد وقالت متسائلة:

-هل تريدانِ مني شيئاً آخر الآن؟

-نظر إليها محمد نظرة امتنانٍ قائلاً:

-أحبكِ يا أروى.

ضمتهما على صدرها أكثر ثم استقامت مغادرة.

(١٢)

في المطار

-الطفلان في المدرسة الآن يا عمي.

-نحن لا نستحق كل هذا يا بنيتي.

-لا تقل مثل هذا.. ماذا فعلت أنا؟

-لانستحق يا بنيتي هذا الكرم، ماذا فعلنا ليضع الله في طريقنا أمثالكِ وأمثال هذه المرأة الطيبة- يقصد أم عبدالرحمن- ابتلانا الله فصبرنا على بلاءه قدر المستطاع، فأرسل الله الفرج إلينا تباعاً.. فهل نحن نستحق؟

-نعم، تستحقون.. مادمت راضياً لم تسخط فسيسخر الله لكم كل شيءٍ، ويسهل كل صعب، ويرد كل غائبٍ، وسيشفى كل مريض.

-يا رب.

-أيمكنني الحديث بصراحة؟

-يا ليت.

-في الحقيقة أنا لا أعلم شيئاً عن إياد ولا عائشة أيضاً.

-أعلم ذلك.. منذ الأمس كنت أنتظر منكِ قول هذا.. لكن أين اختفت، وأين ذهبت؟!

تلعثمت في توترٍ ثم قالت في كلمات متقطعة:

-لا أعلم أين تستقر الآن، لكن أعلم ما الذي أصابها.

عقد الأب حاجبيه ثم قال يستحثها على الحديث:

-تكلمي يا ابنتي ماذا تعلمين؟

فجرت قنبلتها مرة واحدة وقالت وكأنها ترفع عبءً ثقيلاً عن عاتقها:

-لقد قبض عليها في مسيرة ما، أو اعتصام ما، ومنذ ذلك الحين وأنا لا أعلم عنها شيئاً.

غام وجه الأب، وتقلصت عضلاته.. ثم قال بصوتٍ واهنٍ:

-سامحيني يا ابنتي، لقد ظننت بك الظنون ولم أراعِ سجنكِ ولا وحدتكِ .. توكأ على عصاه ثم اتجه صوب دورة المياه بعد أن استأذن منها.. علمت أنه ذاهب كي يتوضأ.. ظل الرجل يصلي ويدعو طويلاً.. زجرت نفسها على ما فعلت.. كان من الواجب أن تخفي مثل هذا الأمرعلى الأب الذي لا يملك من أمره شيئاً.

لكن أليس هذا هو الصواب؟.. على الأقل ألم تلغي أفكار الرجل السيئة عن ابنته؟ ألم يقل هو هذا بلسانه؟.. انتهي الأب من صلاته.. حاولت أن تعتذر عن الأخبار السيئة التي جاءت بها، لكن الأب أشار لها أن تصمت.. وحسناً فعل، لقد كفاها شر اختلاق الأعذار.

-ليس هناك داعٍ للاعتذار يا ابنتي، هذه هي الحقيقة التي كان يجب أن أعلمها منذ أن حدث هذا.. لكن حتى لو علمت ما الذي يمكنني فعله؟!

هتفت هي:

-أنا يمكنني.. أنا محامية، وسأستميت في الدفاع عنها، وهذه هي بداية الطريق.. سأكلف محامٍ آخر، وسأتابع إجراءته حتى انتهي من دراستي بالخارج.

-وهل ستغادرين مرة أخرى؟!

لأول مرة تشعر أنها ذات فائدة.. وبرغم كل ضعفها لا يحق لها أن تميل لأن هناك من يستند عليها.

-سأغادر لكن ليس كالمرة السابقة.. سأعود على فتراتٍ كي أطمئن على سيرالإجراءات التي تخص عائشة، وسأحاول أن أستفيد من علاقات أبي لأعلم إلى أين اتجه إياد.

-لا أدري ماذا أقول لكِ.

-لا تقل شيئاً.. فقط ادعو الله أن يكلل خطواتنا بالتوفيق.

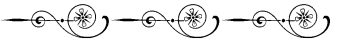

-السلام عليكم.. آنسة نسيم، أيمكنني الحديث معكِ لدقائق؟

-نعم تفضل.

-كيف حالكِ.. وكيف حال الوالدة أيضاً؟

-بخير حال الحمد لله.

-كيف حال دراستكِ الاختبارات على الأبواب؟

-بخير.. الحمدلله.

-أيمكنني السؤال عن صديقتكِ المصرية؟

رفعت حاجبها فى استغراب، ولم تستطع أن تخمن ما الذي يدور بخلده.. هزت كتفيها وأجابت:

-لقد رحلت.

ظهرت على وجه إياد أمارات الخيبة، واستطرد في محاولة منه للوصول إليها:

-أليس لها رقم هاتف يمكنني العثورعليها فيه؟

-أهناك شيءٌ يمكنني مساعدتك فيه؟

-للأسف هي الوحيدة التي تستطيع أن تفعل.

-ماذا هناك؟!

-تعلمين أنني مصري الجنسية.. أليس كذلك؟

-بلى.

-كنت أود أن أعرف متى تسافر إلى مصر.. أردت إرسال بعض الأشياء لأسرتي معها.

-للأسف رحلت.

-الله المستعان.. أيمكنني الانصراف.

-بلى، تفضل.

تقدم بعض الخطوات، ثم لحقت به مسرعة وقالت:

-ماذا إن عادت.. هل أخبرها؟

-أتمنى.. وجهها يوحي بالخير، وأنا أثق بها.. أخبريها أن اسمي " إياد عاطف عبدالرحمن" من الإسكندرية وأود إيصال.....

شرد ذهنها " إياد عاطف عبدالرحمن"، بالفعل قرأت هذا الاسم بالبطاقة الخاصة به كثيراً، لكنها سمعته من أروى أكثر... ويبدو أنها لم تنتبه لذلك.

-هل أنتِ معي؟

-أتقول أنك من الإسكندرية؟

-أجل.

-ماذا عن إخوتك.. هل لك إخوة؟

-ماذا تقصدين؟!

-أخبرني بالله عليك.. هل لك إخوة؟

-نعم.. عائشة ومحمد.

هنا خارت قواها ولم تستطع قدماها أن تحملها.. كادت أن تهوي على الأرض، لكن يديه حالت بينها وبين السقوط.

-آسفة.

-لا عليكِ.. هل أنتِ بخير؟

-هيا إلي السفارة.

-إلى أين؟!!

-إلى السفارة.. لابد أن نحصل على رقم هاتف أروى.

-لمَ؟

-إنها تبحث عنك.

-عني أنا؟!!

-هيا الآن ليس هناك وقت.

-لن أفعل.

نظرت إليه في استغراب.. لمَ؟

-لأنه محظور علي ارتياد مثل هذه الأماكن.

-ماذا تعني.

-أنا مصنف علي قائمة المحظورين من دخول مصر.

نظرت إليه في ذهول قائلة:

-لمَ؟

-لا أدري ولهذا أنا متخف هنا حتى الآن.

-ومَن الذي أخبرك بهذا؟

-صديق لي يعمل بالنيابة العامة أخبرني ذلك..وبمجرد أن وصلت إلى هنا، وأنا أعاني هذا.

-فلتبقى أنت.. سأحاول أنا العثورعلى هاتفها.

-ليس قبل أن أفهم لماذا كانت تبحث عني؟ وهنا لمعت في ذهنه صورة عائشة وهي ترافقها ذات مرة ثم استطرد مجيباً علي نفسه:

-إنها صديقة عائشة أليس كذلك؟

-إذن لماذا كانت تبحث عني.. هل أصاب أمي شيئاً.. هل أبي بخير؟

ازدردت ريقها في صعوبةٍ ولم تجب.

-أرجوكِ تكلمي.. هل هم بخير؟

-بلى.

-ولماذا تبحث عني.

لم يتلق جواباً سوى الصمت.

-أمي ماتت أليس كذلك؟

-لا.. إنها عائشة.

قال بعصبية:

-ماذا أصابها؟

-سُجنت.

خر جالساً على أقرب مقعد.

كان اعترافها قاسياً.. لكن هي لم تخطئ، لابد أن يعلم ذلك، هو رجل الأسرة وليس لهم سند غيره.. من الضروري أن يعلم ما يمرون به وإلا فما الفائدة من وجوده؟

-سأحاول أن أتواصل معها بأي طريقة من أجل أن أخبرها أنني أخيراً عثرت عليك.. سأهاتفك إن توصلت لشيء.

تركت الجامعة في هذا اليوم مبكراً.. واتجهت إلى مبنى السفارة المصرية وبعد تفتيش دقيق سُمح لها بالجلوس في ردهة الانتظار لبضع قائق.. حتى تواصلت معها إحدى العاملات بالسفارة.

-ما الأمر يا سيدتي؟

-أود الحصول على رقم هاتف الوزير "محمود الشرقاوي".

نظرت إليها المرأة في دهشة قائلة:

-ماذا هناك؟

-إنني صديقة ابنته، وهناك أحد الأمور المهمة التي أردت إخبارها بها.

نظرت إليها المرأة متفحصة ثم قالت:

-الوزير متوفى منذ أكثر من أسبوعين.

تهاوت نسيم على أقرب مقعد.. هذا هو سبب اختفائها إذن.. يا لها من صديقة سيئة، كيف لم يخطر على بالها من قبل هذا؟ ألم تعترف أروى شخصياً بتوقعها لحدوث هذا من قبل؟

تحاملت على نفسها قائلة:

-أيمكنني الحصول على رقم هاتف المنزل؟

-انتظريني دقائق فحسب.

-اختفت المرأة في أحد الحجرات لفترة قصيرة، ثم عادت ومعها رقم الفيلا بالقاهرة.

لم تستطع نسيم الانتظار حتى الوصول إلى شقتها.. جلست على أحد المقاعد الموجودة على أحد الأرصفة وحاولت الاتصال بالرقم الذي حصلت عليه ولكن كالعادة تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن.

جاءها الرد مقتضباً:

-الآنسة أروى ليست هنا منذ الأمس.

-إذن أين هي؟

-لا أعلم.

-أيمكنني الحصول على رقم الهاتف الخاص بها؟

نعم.

في هذه اللحظات، لم تكد أروى تغادر الباب محملة بدعوات الأب وزوجته بعد أن وعدتهم بالاطمئنان عليهم دائماً.

هبطت بعض درجات السلم.. ارتفع رنين هاتفها.. نظرت إلى شاشته.. كانت نسيم أبعد ما يكون عن بالها في هذه اللحظات.. علمت أن الاتصال آتٍ من باريس.. لعلها الجامعة أو المشرف على رسالتها، تنهدت في وجلٍ ثم رفعت سماعة الهاتف إلى أذنها وهنا أتاها صوت لطالما تمنت سماعه.

-أروى أنا أسفة على كل ما حدث.. لكن هذا ليس وقت اعتذارات.. اتصلت بكِ لأخبركِ أنني عثرت على إياد، لقد علم كل شيءٍ وبنبأ تغيب عائشة.

لم تستوعب أي شيءٍ وظلت صامتة.

-أروى.. هل أنتِ تسمعيني؟ لماذا لم تتكلمي؟ أخبركِ أنني عثرت على إياد.

-هل أنت محقة في هذا؟

-نعم والله.. وإلا لما اتصلت بكِ.. لقد اشتقت إليكِ بشدة:

-وأنا كذلك.. سأخبر أهله وأهاتفكِ مرة أخرى.

-سأنتظر اتصالكِ.

استدارت إليهم.. رأت اللهفة في عيونهم جميعاً، تكلمت بصوتٍ مبحوحٍ لم يفق من وقع المفاجأة بعد:

-لقد عثرنا على إياد.

خر الأب ساجداً.. وهنا جاء صوت الأم الذي طال صمته:

-أحقاً يا ابنتي.. إياد ابني.

-نعم يا أمي هو بعينه.

-ما أكرمك يارب وما أحلمك.. هل هو بخير؟

-أعتقد ذلك.

-هل يمكنني الحديث معه يا ابنتي؟

-سأحاول.. هاتفت نسيم بعد برهة جاءها صوتها.

-هل أنتِ متأكدة؟

- مائة بالمائة.. أتذكرين الطبيب الذي قابلناه مسبقاً في زيارة لأمي.. إنه هو.

-هل هو موجود معكِ الآن.. أهله يريدون محادثته؟

-كلا.. هو ليس معي.. هل أنتِ بمنزل أهله؟

-نعم منذ الأمس.

-لعلهم بخير.

-هم كذلك.. لماذا تغيب كل هذه المدة؟

ممنوع من دخول مصر.

-لمَ؟

لا يدري، لكن أحد زملائه بالنيابة أخبره ذلك بعد سفره مباشرة.. سأحاول أن ألتقي به، فقط أعطني رقم هاتف أحدهم.

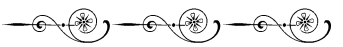

-آسفة يا عماه، لم أكن أعلم أنني سأغادر.. لقد كان سفر طارئ لم أستطع أن أؤجله.

-لا عليكِ لقد اتخذت الإجراءات أنا.. ماذا تنوين أن تفعلي؟

-سأسافر إن شاء الله.. لقد سَهلت الأمور كثيراً، لقد التقيت بأهل عائشة، وأخبرتهم نبأ محبسها، أما الخبر الثاني الأكثر سعادة.. لقد عثرنا على

أخيها المتغيب منذ أكثر من عام، لم يعد هناك شيء سوى أن نعلم أين محبسها؟

-سأكلف المحامي الخاص بي بهذا الأمر، وهذه خطوة في غاية السهولة أيضاً.. لقد تم الإعلان عن مجموعة كبيرة من المختفين قسرياً هذا الأسبوع، ولعلها يدرجون اسمها في الفوج القادم.

-أتمنى ذلك.

-حتى لو لم يحدث.. سأستخدم علاقاتى الدبلوماسية ومعارفي من أجل أن أتوصل إليها.. لا تقلقي.

-أيمكنني الحديث بشيءٍ آخر؟

-تفضلي.

-وأنا أعبث بمحتويات أبي، عثرت على صورة لامرأة لم أرها من قبل، لم أهتم كثيراً للأمر، لكن الغريب أنها ظهرت في أكثرمن صورة، والأغرب أنك كنت ظاهراً في بعضها.

ابتلع ريقه في صعوبةٍ ولم يجب.. أمسكت بحقيبتها ثم أخرجت منها الصورة التي احتفظت بها من قبل.. مدت يدها بها قائلة:

-تفضل.. لابد أنك تعرفها.. أليس كذلك؟

-بلى.

-مَن تكون؟!

-إنها أخت أبيكِ.

-أخت أبي أنا؟!! لماذا لم أرها من قبل؟

-لا أدري.

-هل هناك أمر ما تخفيه علي؟

شرد بصره في الفضاء ولم يجب.

-ماذا هناك؟

-لا شيءَ.. هذه هي عمتكِ يا بنيتي، لقد غادرت منذ أعوام عديدة، ولا يعرف أحد لها مستقراً حتى الآن.. بما أنكِ أصبحتِ على علمٍ بالموضوع.. فقد أوصاني والدكِ إذا ظهرت، أن أقوم بتوزيع ميراثكِ على ثلاثة حسب ما تقضي به الشريعة الإسلامية.

ثلاثة.. من تقصد بثلاثة، أنا وعمتي فقط مَن الثالث؟

-ابنتها.. كان لديها فتاة.

-ليتها تعود وتأخذ الميراث كله.. إنني في أشد الحاجة إلى قريبة وابنة عمة.

-نحن أقارب يا ابنتي.

ابتسمت في ودٍ قائلة:

-الصداقة تختلف عن القرابة، وإن كنت أقرب لي من قريبتي هذه.

-لكنني بالفعل قريب وليس مجرد صديق فقط.

-حقاً؟

-نعم.

-وما هي صلة القرابة إذن؟

-ليس هذا وقته، لكنني أؤكد لكِ أنني قريب أكثر منه صديق.. فلنعود إلى قضيتنا، هل جمعتِ كل المعلومات التي يمكن أن تساعدنا في العثورعليها؟

-نعم.. أخرجت من حقيبتها ملفاً وضعته على المكتب قائلة:-

-هذا الملف يحوي كل شيءٍ.

-الله هو الموفق، سأذهب أنا الآن.. سأجلس مع المحامي وأبلغكِ بالتفاصيل إن جد جديد.

-سأنتظر أخباراً مبشرة.

-إن شاء الله.. لكن أخبريني أولاً متى ستغادرين؟

-اليوم في السادسة مساءً.

-سريعاً هكذا؟

-لقد ضيعت الكثير من الوقت هنا.. لم يعد هناك مبرراً لمكوثي هنا أكثر من ذلك.

-على بركة الله.

انصرف الرجل إلى مسكنه.. وفي حديقة الفيلا وجد أدهم يجلس مع المحامي.. ألقي عليهم تحية عابرة ثم استداروكأنه تذكر شيئاً.. نظر إلى المحامي مخاطباً:

-جاسر.. لقد جمعت المعلومات التي يمكن أن تفيدك بشأن القضية التي حادثتك بشأنها.. سأطلع على الملف ثم أرسله لك صباحاً.

-أنا في انتظار وصوله.

-معذرة دكتور أدهم.. أكمل ما كنت تقوله.

-إنها قضية تخصني شخصياً.. وتمسني بشكل مباشر..أريدك أن تبذل كل ما في وسعك حتى تكون الأمور في صالحنا.. ولا أخفي عليك الأمور معقدة جداً، والقضية سياسية من العيار الثقيل، ولا نعلم للمتهمة مكان حتى الآن.. بل حتى لا نعلم هل حية أم ميتة؟

-لا تقلق.. لقد أخبرت الدكتور كمال أنني لن أتوانى في الحصول.... .

-دكتور كمال!! ما علاقة أبي بالموضوع؟

-أوليست هذه قضية عائشة عبدالرحمن؟!

-من أين لك بهذا الاسم.

-أنا لا أفهم شيئاً.. هذه القضية حدثني والدك بشأنها صباحاً.

-والدي أنا!!

-نعم.

-وما علاقته بعائشة.. أمتأكد أنت؟!!

-كل التأكيد.

-إذاً انصرف الآن، وإن توصلت لشيءٍ أخبرني به فوراً.

-بالتأكيد.

اجتاز أدهم خطوات سلم الحديقة في خطوات واسعة.. طرق باب غرفة المكتب، ولم ينتظرالإذن بالدخول.. لم يكن والده بالغرفة.. لكن لفت نظره ملف موضوع فوق المكتب بعناية.. أمسك الملف بين يديه، ألقى عليه نظرة عابرة ثم استوقفه اسم موجود بمقدمة الصفحة الأولى "عائشة عاطف عبدالرحمن".. وضع الملف في عدم اكتراث

خرج من المكتب وصوته يجوب أركان الفيلا.. ما الذي يحدث؟ أنا لم أعد أفهم شيئاً.. أطل عليه أحمد من الدور الثاني قائلاً بفزعٍ:

-أدهم ماذا هناك لماذا صوتك عالٍ هكذا؟

-ما الذي يحدث هنا.. ما علاقتكم بعائشة؟

-هبط أحمد السلم عدواً وهو يقول:

-اخفض صوتك والدك مرهق ونائم.

-ليس قبل أن أفهم.

-تعال كي أفهمك.

هتف أبوه بهذه العبارة، وهو يهبط السلم بخطوات وئيدة.. ثم تقدمهم إلى حجرة المكتب.. جلس الأب متوسطاً المنضدة وعلى جانبيها من الناحية الأخرى أدهم وفي قبالته أحمد.

-باختصار يا بني هذه قضية تهمني أنا شخصياً.. حملق أدهم في عدم استيعاب هاتفاً:

-ماذا تعني؟

-هذه قضية أوصاني بها الوزير محمود الشرقاوي رحمه الله.. إنها تخص ابنته أروى.

وهنا انتفض قلبه انتفاضة زعر قبل أن يهتف :-

-أروى من؟

-أروى ابنته.. ابنته الوحيدة.

-هل هذه هي ابنة الوزير حقاً؟

نعم.

-إذن هيا.

-إلى أين؟!!

-إليها.

قال أحمد في استياءٍ واضحٍ:

-بل أنا الذى لم يعد يفهم أي شيءٍ في هذا البيت.

-ليس هذا وقت فهم.

-قم معي يا أبي إليها.

نظر الأب في ساعة يده ثم قال في لامبالاة:

-لقد سافرت هي الآن في طريقها إلى فرنسا.

ارتمى أدهم على أقرب مقعد ثم قال متسائلاً:

-متى غادرت؟

ستنطلق طائرتها في السادسة مساءً.

نظر أدهم إلى ساعة يده ثم هب واقفاً.. اتجه نحو الباب وهو يقول:

-مازال أمامي بعض الوقت.. استقل السيارة وانطلق بها في سرعة جنونية صوب المطار.

نظرت هي في ساعتها.. باقٍ من الوقت نصف ساعة فقط.. أخرجت من حقيبتها مصحفاً لتقطع به المرور الطويل للوقت وفجأة ارتفع صوت مكبرات الصوت هاتفاً

-"على الآنسة أروى محمود الشرقاوي التوجه إلى مكتب الاستعلامات قبل صعود الطائرة المتجهة إلى باريس.

تلقت النبأ فى دهشةٍ .. ظل الصوت يكرر نداءه .. لم تستطع أن تعرف ما الذى وراء هذا النداء؟ .. أغلقت حقيبتها وبالفعل اتجهت نحو مكتب الاستعلامات، وفجأة رأته واقفاً أمامها بجسده وروحه وكل كيانه، هتفت هى فى ذهول :

-ما الذى جاء بك إلى هنا؟

-أنتِ

-أنا!!

-نعم .. لن أدعكِ تذهبين ثانية .. يكفينى ما حدث في المرة السابقة حاولت أن تخفي ابتسامتها .. لكنها اتسعت أكثر حينما هتف بها :

-هل تقبلين بى زوجاً لكِ؟

وفجأة جاءهم صوت ثالث قائلاً :

-هكذا.. من ورائنا، ألن تكف عن هذا التخابث؟

نظر أدهم إليها مشيراً إلى هذا المتحدث وقال فى استخفافٍ:

-أحمد .. أخي.

-أعلم.

تقدم الأب وخلفه رجلاً يضع العمامة على رأسه وبيده دفتراً عريضاً ... قال الأب بصوت يقطر سعادة:

-هيا .. ها أنا وكيل العروس.

هتفت فى عدم تصديق :

-ما الذى يحدث ؟!

-أزوجكِ لابنى .. هل تمانعين؟

-خفضت بصرها أرضاً ولم تجب .. هتف أحمد في عبثٍ واضحٍ :

-إذان السكوت علامة الرضا.

وكزه أدهم فى صدره قائلاً :

كف عن هذا العبث .. لا تخجلها أكثر من ذلك.

أنهى الشيخ المعمم إجراءاته وبارك للعروسين.. وفجاءة انهالت عليها التهنئة، وارتفع التصفيق، ورأت أناس لم ترهم من قبل يتدافعون نحوها من أجل السلام عليها وتهنئتها .. كاد قلبها أن يرقص طرباً من هذه المفاجأة الغير متوقعة، ومَن هؤلاء الذين يشاركونها بهجتها دون أن تراهم من قبل ودون أن تراهم ثانية؟ مد الوالد يديه داخل جيب سترته ثم أخرج منه علبة فضية اللون .. مد يده بها نحو أدهم قائلاً:

-وهذا خاتم خطبتك ضعه فى يد عروسك.

وقبل أن تتجه إلى الطائرة بلحظاتٍ هتف في صوتٍ رخيمٍ هادئٍ:

-انتظرينى سألحق بكِ عاجلاً.

-سأنتظرك.

قال ضاحكاً :

-هكذا سريعاً ؟!

خفضت بصرها إلى الأرض فى حياءٍ، وآثرت الصمت.

-أيمكننى أن أسالكِ سؤالاً؟

-نظرت هي في ساعة يدها ثم قالت:

-تفضل.

-أعلم أنكِ في عجلة من أمركِ.. لكن لن أتركِكِ تغادرين قبل أن تجبيين علي، لماذا اختفيتى المرة السابقة دون سابق إنذار.. هل أنا منفر إلى هذه الدرجة؟

-بالطبع لا.

-إذن حدثيني عن شعوركِ وقتها.

نظرت إلى ساعة يدها ثم قالت بابتسامة خجولة:

-الطائرة.

وضع ساق على ساق ثم عقد ساعديه أمام صدره وقال في استفزاز:

-قلت لن تغادرى قبل أن تجيبى وإلا سأمنعكِ من السفر تماماً.

-هل تقدر؟!

-نعم، ومن يقدر غير زوجك؟

-زوجى!!

قال مقهقاً:

مالك متعجبة هكذا .. الشيخ ما زال هنا هيا لنسأله .. وإن شئتِ فانظري إلى بصمة يدكِ.. بماذا يوحي هذا اللون الأزرق؟ .. ها أجيبى بماذا أحسست وقتها؟

نظرت في عينيه مباشرة قائلة:

-تمنيت حينها لو أن بإمكانك رؤية قلبى.. لو كانت المشاعر ترى لأراحتنا كثيراً.. هل تسمح لي بالمغادرة الآن؟

وضع كفها بين يديه، ثم شد عليها قائلاً:

-فى أمان الله وحفظه.

ظل يتابعها ببصره إلى أن صعدت سلم الطائرة.. التفتت إليه وكأنها تملي عينيها منه بنظرة أخيرة.. اتجهت إلى مقعدها وقلبها يحلق حيث يوجد هو.

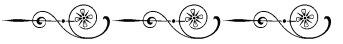

(١٣)

كن عاقلاً

أنا المحامي جاسر حسن القاضي.. المحامي الخاص بمجموعة شركات النشار جروب للأدوية .. لوهلة لم تنتبه للاسم لولا أنه استطرد قائلاً:

-أرسلني إليكِ دكتور أدهم .. كان يود أن يلتقيكِ بنفسه.. سأحاول أن أستصدر له تصريحاً بالزيارة .. لنعد إلى قضيتنا أنا المحامي المكلف بمتابعة قضيتكِ، وحتى أكون صريحاً معكِ.. الأمر ليس هيناً بالمرة.. القضية تحاصرها الخطورة من كل جانب ليست مجرد قضية توزيع منشورات بالحرم الجامعي، أو الانضمام إلى مسيرة تخريبية فحسب.

-ماذا تقصد؟!

-الأمور تطورت.. والجرائم لفقت لصديقاتكِ.. مثلاً أصبحت قضايا تخابر مع دول أجنبية.. أوالإدلاء بمعلومات سرية تخص الجيش والشرطة إلى بعض الغرباء.

-ما كل هذا من أين لفتاة مثلي بهذه المعلومات أصلاً ؟!

-أنا لست هنا لأقلقكِ.. فقط أردت أن أجعلكِ ملمة بالأمور ككل، وأن أبين لكِ حقيقة موقفكِ.

وبالمناسبة هناك بعض الأمور التى تقع في صالحكِ، مثلا مدة الحبس الاحتياطى التي تجاوزت الثلاثة أشهر دون أن يوجه لكِ سؤالاً واحداً.

لذلك أريد أن تخبرينى عن كل شيءٍ يتعلق بكِ لا سيما إن كان سياسياً حتى أكون ملماً بالأمور جميعها.

-لا علاقة لى بالسياسة.. بل حتى لست من هواة قراءة الجرائد، فقط ذهبت إلى الجامعة وبحقيبتى مصحف وورقة تحمل بعض الفتاوى التي تخص

الحجاب وذلك لأن أروى طلبتها مني وهي ستشهد على ذلك.. وجدت المسيرة في طريقى تغلق الشارع ككل ... فلم يكن هناك بد من السيروسطهم ولكن عكس الاتجاه .. بعدها لم أعِ أي شيءٍ إلا وأنا بسجون الداخلية.

-هذا يعنى أنه لم يكن لك نشاطات سابقة .. ولا أي فعاليات تخص أى جماعة؟

-لا إطلاقاً.

شد قامته واقفاً ثم ابتسم لها قائلاً:

-اطمئني ..سنلتقي في القريب العاجل إن شاء الله.

ولأول مرة تلتقي عينه بعينها نظرت إليه متوسلة ثم قالت له فى رجاءٍ:

-أيمكنني أن أثقل عليك بطلبٍ؟

-أهلكِ، أليس كذلك؟

-بلى.

-جميعهم بخير.. كيف نسيت أن أخبركِ.. على كلٍ لقد عثرنا أخيراً على أخيكِ الغائب.

هتفت فى عدم تصديق :

-حقاً؟!

-أقسم لكِ.

وبحركة تلقائية.. غطت وجهها بيدها متممة ببعض كلمات الحمد، ودموعها منسابة على وجنتيها.. ثم قالت متسائلة:

-هل هو بخير؟

-نعم.. الأمور خارجاً تسير على ما يرام.. ولا ينقصهم سوى الاطمئنان عليكِ.

-حبيبتى لقد أنرتِ فرنسا كلها.

-كفى كذباً.

-أيكفيكِ أنكِ بكل صدق قد أنرتِ قلبي لعودتكِ، أنا لا أجد سبب لفرحتي هذه سوى أنكِ أصبحتِ شيئاً مني.

-وأنتِ كذلك.

-هيا إلى الشقة لقد أحضرت لكِ طعاماً.. لا بد أنكِ جائعة.

وفي العربة سألت نسيم أروى :

-أروى ..هل تجدين في نفسكِ شيئاً علي، أشعر وكأننى خذلتكِ في أشد أوقاتكِ احتياجاً إلي.

-لا تقولى هذا أبي بخير الآن ، يكفيه أنه لحق بأمي عند إلهٍ رحيمٍ عادلٍ.

-رحمه الله.

-آمين.

-لقد اصطحبت لكِ بعض الهدايا المصرية متأكدة أنها ستعجبكِ .. صحيح أخبريني ما الذى حدث بشأن لقائكِ مع والد أحمد؟

-لقد وصلنا..هيا إلى الطعام أولاً.

وأثناء تناولهما الطعام لاحظت نسيم خاتم يلمع في إصبع أروى هتفت بصوتٍ عالٍ:

-أروى ما هذا الخاتم؟

-إنه خاتم خطبة.

-هل تمزحين؟.

-كلا.. وهل في هذا مزاح؟

-ولماذا أنتِ صامتة حتى الآن؟.. لمَ لم تخبرينى منذ أن التقيت بكِ؟

نظرت إليها أروى ضاحكة وقالت:

كلما حاولت أن أحدثكِ بشيءٍ قلتِ الطعام أولاً..فامتثلتُ لأمومتكِ.

-لا موضوع مثل هذا أهم من هذه الأمومة المزعومة ..دعي الطعام والشراب وأخبريني إلى مَن خطبتي؟

وكيف حدث هذا بهذه السرعة؟ وإلى أين ذهب ذاك الأدهم؟

-لم يذهب.. لقد اقترب أكثر.

-تقصدين أنه هو؟!!

-نعم.. قصت أروى عليها كل ما حدث وبالتفصيل.

هتفت نسيم بارتياح:

-الأمور تسير على ما يرام.. عثرنا على إياد، وعلى عائشة، وأنت خطبتي لأدهم.. هذا أكثر مما نتوقع.. الحمد لله

-ماذا عنكِ؟

-لاشيءَ ..أمى كما هي.

-وماذا عن أحمد؟

-لا أدري منذ أن التقيت به وبأخيه ، وهو مختفٍ

-ألم يكن والده حاضراً؟

-لا، حادث طارئ منعه من الحضور.. الحمد لله لست حزينة كما تشعرين، ثم إن أخبارك السعيدة هذه أثلجت صدري كما لو أنني أنا التي خطبت.

وفي اليوم التالي اتجهتا إلى الجامعة سوياً ..اطمئنت أروى على والدة نسيم ..بعد أن قدمت الاعتذار إلى المشرف على الرسالة الخاصة بها، لتغيبها الطارئ.

-ماذا بك.. لماذا أصبحت تطيل الصمت هكذا؟

-لا شيءَ.. إنه الإرهاق ليس إلا.

-ماذا بك يا أحمد تحدث.

شد أحمد ياقة عنقه وقال فى ضيق:

-ألم تتوقع أنت شيئاً.. أنسيت الفتاة التي وعدتها بالخطبة.. منذ شهر كامل ولا أحد يعبئ بي.. أو حتى كلف خاطره وسألنى.. أقضي وقتي مغموساً فى العمل علكم أن تشعروا أنني أحاول أن أقطع الوقت بأى شيءٍ.. هى لا تعنيني بقدر ما يعنيني وعدي لها بالعودة، وتمسكي بها، ألن تسأل نفسك ما الذى ستظنه بي؟.. وبالفكرة التى ستطبع في ذهنها عني بل عن أصلها العربي كله.

تباً للعادات والتقاليد.. تباً للمظاهر الكذابة.. والتفاخر الخادع الذي يمنعني من الارتباط بمن أحب.. لقد ضاق صدري.. أخبر أباك أنني سأسافر إلى الإسكندرية لفترة لم أعرف مداها بعد.. ثم هب مغادراً..أمسك أدهم بذراعه قائلا :

-كلا ..لن تغادر.. تسآل متعجباً:

-لمَ؟

-لأن لديك سفراً آخرغداً.

رفع حاجبه فى دهشةٍ متسائلاً:

-إلى أين؟

-إلى فرنسا.

-أنا لم أفهم.. ماذا هناك؟

-أتظن أنني نسيتك.. أو انشغلت بخطبتي عنك.. لقد حاولت جاهداً في الأيام الماضية أن أقنع أباك ولقد وافق.. ولكنني آثرت أن أفاجأك بأمر السفر هكذا.. لكنك تعجلت.

ابتسم أحمد في خجلٍ وقال بصوتٍ يحمل كل الحب:

-حقا إنني أحمد الله على أنك أخي.. أشعر وكأن علاقتي بك تشبه علاقة هارون بموسى أنت لست مجرد أخ أنت صديقي ووالدي وكل شيءٍ.

-قال أدهم ضاحكا:

-كل هذا من أجل تذكرة سفر.. لو كنت أعلم ذلك لاستصدرت لك تذكرة سفر كل يوم.. ثم قال وهو يغادر استعد سنسافر صباحاً.

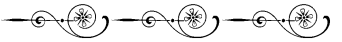

-أنا ذاهبة، لا شك أن الطائرة على وشك الوصول هل تريدين شيئاً؟

-لا لكن لا تتأخري حتى لا تقلقيني عليكِ.

قالت في غرور مصطنع:

-لا قلق علي في حضرته.

-هكذا إذن.

-بالضبط تماماً.

-ما هذه الرقة التي هبطت على مشاعركِ فجأة؟

-أنا هكذا دائماً.. لكنكِ لا تشعرين.

-اذهبي لقد فار الدم في عروقي.. لكن أخبريني هل أنتظركِ على الغداء؟

قالت وهي تجتاز خطوت السلم:

سأهاتفكِ بشأن هذا.

أغلقت نسيم باب شقتها، وبعد بضع ساعات هاتفتها أروى، وأخبرتها أنها على وشك الوصول .. وعلى باب المبنى الذى تقطن به هتفت أروى:

-أعطني الحاجات وانصرف أنت.. لابد أنهما فى انتظاركِ.

-سأوصلكِ أولاً.

-لقد وصلنا بالفعل.

-لا أقصد هنا.. أقصد أننى لن أدعكِ تحملين هذه الأشياء بمفردكِ.

قالت فى برود:

-لن أحملها.. المصعد هو الذي سيفعل.

-وهل هذا يليق برجل شرقي، هل المصعد أولى مني بمساعدتكِ؟!!

-أدهم كن عاقلاً.

-لن أفعل.. لابد أن أصعد معكِ ، وتريني شقتكِ.. أريد أن أرى المكان الذى تعشين فيه .

-ليس هذا وقته.

-ومتى إذن؟

-ظلت تتراجع بخطواتها إلى الخلف وهو يتقدم نحوها حتى اصطدمت بالحائط ..وهنا وضع ذراعيه على الحائط مطوقاً إياها، وجعلها فى المنتصف تماماً.

أشارت بإصبعها، وكأنها تزجر طفلاً صغيراً، هتفت قائلة:

-كن عاقلاً وعد من حيث أتيت.

-في هذا الوقت تحديداً من العقل ألا أكون عاقلاً.. لقد مضى علي أكثر من ثمانية وعشرين عاماً كنت فيها عاقلاً تمام العقل ومتزناً تمام الاتزان، وما زال في العمر بقية أستطيع فيها أن أكون عاقلاً ومتزناً متى شئت .. أما الآن فلا..لم تستطع أن تمنع نفسها من الضحك.. نظرت إليه فوجدته جميلاً وسيماً رقيقاً يطل الحنان من بين عينيه، اقترب منها أكثر حتى باتت تتنفس أنفاسه.

أحست بلهيب أنفاسه يلفح وجهها، وهنا فتح باب المصعد ونزل منه أحد السكان.. قال في عصبية

-هيا أمامي سأوصلكِ حتى باب الشقة وأنصرف.

قابلت عصبيته بضحكة عالية مستفزة.. قال في عصبية مصطنعة، وهو يضم قبضته ويتجه بها نحو رأسها قائلاً:

-سعيدة أليس كذلك.. أيرضيكِ هذا الفزع؟

-يرضينى وجداً.

بعدها بلحظات كانا أمام باب شقتها.. وفجأة فُتح باب الشقة المقابلة وحينها كانت المفاجأة.

هتفت نسيم فى ذهول:

-سيد أدهم!!

-دكتورة نسيم.

نظرت إليهما أروى فى شبه صدمة:

هل تعرفان بعضكما؟!

-إنها الفتاة التى أراد أحمد خطبتها.

انقضت أروى على نسيم حاضنة إياها وهى تقول في سعادة بالغة:

-أنا لا أصدق هل هذا صحيح.. أخيراً سننتمي إلى عائلة واحدة، يالروعة القدر حين يفاجئنا بأماني لم نتوقع حدوثها يوماً.

نظر إليها أدهم متعجباً ثم قال في لهجة متسائلة:

-هل نسيم صديقتكِ؟

-صديقتى وأختى وكل شيءٍ لي هنا.. سأجن لا أكاد أصدق.

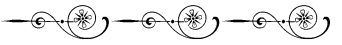

-أين كنت يا أدهم..لماذا تأخرت هكذا؟

-كنت أوصلها إلى المنزل.

-ماذا بك؟

-لا شيءَ تغمرنى السعادة ليس إلا.

-ولمَ؟

-لاشيءَ.. فقط قابلت نسيم.

-مَن ؟ تقصد أروى ؟

-لا نسيم.

-تحدث بجدية.

-أنا لا أمزح.. لقد قابلتها وهناك أخبار مبشرة.. هاهو والدك قد أتى سأشرح كل شيءٍ عندما يجلس وبعد برهة كان يحكي كل ما حدث بالتفصيل.

-بعد أن انتهى أدهم من حديثه قال الوالد في سعادةٍ:

-أنا أثق بأروى جداً سأتحدث معها وأحاول أن أنهي خطبتك أنت الآخر سريعاً.. مبارك مقدماً يا أحمد.

-أخيراً انتهيتي من الاختبارات.. خطبتكِ بعد غدٍ، هل أنتِ مستعدة؟

-كل الاستعداد، سنذهب غداً لنزور أمى سوياً.. إن قلبي يكاد ينفطر حزناً وألماً عليها.. أنا لا أصدق أنني سأرتدي فستان خطبتي وسألبس خاتم خطبتي وهي هناك على قيد سنتميترات من الموت.

-تأخيركِ للخطبة، أو تقديمكِ لها لن يغير من قدرالله شيئاً ..سنزورها غداً وأنا متأكدة أن السكينة ستملئ قلبكِ، والراحة ستتربع بداخلكِ.

كانت زيارة بائسة إلى أبعد حد..أشبه بزيارة القبور.. هي على سريرها لا تسمع ولا تبصر ولا تعي شيئاً من هذا العالم.. أما ابنتها فكانت واقفة أمام زجاج الغرفة، وكأنها واقفة أمام مقبرة .. تمتمت ببعض الكلمات وكأنها تخبرها بما آلت إليه الأمور.

-ها أنا لقد أنهيت دراستي يا أمي ولم أجدكِ بجانبي.. لكم وددت أن ألبسكِ ردائي الأسود! وقبعة تخرجي تكريماً لكِ على كل ما بذلتيه من أجلي.. لكم تمنيت أن أقبل قدمكِ قبل يديكِ فأنتِ الأم والأب والصديقة وكل شيءٍ.

ها أنا ستنعقد خطبتي غداً دون حضوركِ، لن تلبسيني فستاني كما تمنيتُ ودون أن تحيطيني بآيات الذكر الحكيم التى ستحفظني من أعين الحاسدين.. هاهو خطيبي ليس لي أحد كى يوصيه علي.. مسحت دمعة ترقرقت في عينيها، ربتت أروى على كتفها، ثم استدراتا خارجين.

-هل ستقابل إياد؟ لقد أخبرته نسيم بالموعد.

-نعم.. لقد بذلنا جهوداً خرافية كي يحذف اسمه من قائمة المحظورين من دخول مصر.. وهاهو صديقي أخبرني أن آخر إجراء في هذا قد تم اتخاذه اليوم، فلمَ التأخر إذن؟

-الحمد لله.. هو يستحق.

-يستحق ماذا؟

-يستحق أن يجد من يساعده في التخلص من بؤر الظلم التي تحيط بعائلته وبه من كل جانب.

-ومالك مشفقة عليه هكذا؟

إنه أخو عائشة هل نسيت؟

-لا.. لم أنس لكن حال عائشة هو الذى يخصكِ لا حاله هو.

-وهل هناك فرق بين حاله وحال أخته؟!

-أنت لا تجيدين شيئاً إلا الجدال.

ضحكت في استغراب:

-إنها مهنتى.. وهل تعلمت شيئاً في دراستي أكثر من فنون الكلام؟!

-بظنكِ هل مهنتكِ هذه تستحق كل هذا الفخر؟

-نعم، وأكثر من ذلك.. إن شعور المحامي عندما يعيد الحق إلى مستحقه يضاهي روعة شعور الطبيب عندما ينقذ حياة إنسان، قل لي بربك ما نفع جسد يتنفس ويبصر ويتحرك وروحه يضنيها ألم الجور وغصب الحق؟

-هل تقارنين القانون بالطب؟

-لا، ليست مقارنة.. كلاهما مهم لتستمر الحياة.. لكن القانون أروع، فقط لو طبق كما يجب أن يكون.

-متحيزة كما عهدتكِ دائماً.. فلنعد إلى موضوعنا هل إياد هذا أسود، سمين، أفطس الأنف وقصير؟

-لا إطلاقاً.. إنه وسيم، أبيض البشرة، وأخضر العين.

-إذن لا بد من أنه ثقيل الظل، سيء المعاشرة، تافه التصرفات وكثير الكلام.. أليس كذلك؟

-نعم، على العكس تماماً.. إنه مهذب، لبق، قليل الكلام، جاد التصرفات، يحب الخير للآخرين.

-إياد هذا لا بد أن يوضع في قائمة الحظر كما كان!

-كفى هزلاً..أنت زوجي ..وعلاقتي به مجرد علاقة سطحية عابرة، عائشة هي السبب في وجودها أعلمت أنه ليس هناك وجه للمقارنة؟

-أعجبتني كلمة زوجي هذه.

-ولمَ العجب؟

-إنك تصرين دائماً على أن علاقتنا ليست إلا مجرد خطبة.

-وهي كذلك ..في الدين أنت زوجي لكن عرفاً لا زالت مجرد خطبة.

-ومتى سنتزوج.. أحلم بطفل منكِ يشبهكِ، أستند عليه حين تقسو على الأيام.

عندما تقسو عليك الأيام، يكفيك أن تستند على أروى.

-ما كل هذا ياحبيبتي.. ما رأيكِ أن نعجل به إذن؟

-بعد أن تحرر عائشة، وأنتهي من رسالتي.

-أعيدي تفكيراً في هذا الأمر.

-لا لم نتفق على هذا.

-نحن لم نتفق على شيءٍ من الأساس.. لقد غُدر بي في المطار وتزوجتك هكذا دون أن أدري ما الذى يحدث.. أتدرين ما هى الحماقة الوحيدة التي ارتكبتها فى حياتي؟

-لا زالت أمامك فرصة كي تصلح من حماقتك هذه.

كفي عن هذا العبث.. الحماقة الوحيدة أني تركتك تذهبين من بين يدي في أول لقاء بكِ، لكم أتعبني ذلك؟..ولكنني سأقتص منكِ.. لا تتعجلي.

-ولهذا سأقوم بتأخير ميعاد زواجنا.

-أنتِ وشأنك أنا رجل مرغوب فيه، تحيطه النساء من كل جانب لولا أنى أصد عنهن صداً.

-وهذه هى الحماقة الثانية التى ترتكبها في حياتك.

-هيا يا أروى هيا اذهبي.. إنكِ مستفزة، تثيرين أعصابي دائماً.

بالمناسبة، سأعود إلى مصر بمجرد انتهاء الخطبة.

-لمَ؟

-إحداهن طلبت حضوري، فأمورها لن تسير إلا إذا كنتُ موجوداً؟

-مَن هذه؟

-فتاة طيبة، رقيقة، مسالمة، تلجأ إلي دائماً.. أعلمتنى كيف تكون الأنوثة.. ليست كواحدة أعرفها جيداً لا ينقصها شيء سوى أن ينبت لها لحية وشارب حتى تكون رجلاً.

-وضعت أروى يدها على ذقنها فى حركة تلقائية ثم هتفت في صوت يحمل رنة البكاء:

-هل تراني هكذا فعلاً؟

-أنتِ كذلك.

-أدهم كن جاداً هل هذا هو انطباعك عني؟

-لو كنت هكذا لما تزوجتك يا بلهاء؟

-إذن مَن هذه التي ستعود من أجلها؟

-إنها عائشة.. ميعاد جلستها الثانية، وهذا أمر يستوجب حضوري.. فأمورها لن تسير إلا إذا كنت موجوداً.

هيا إياد على وشك الحضور لا بد أن أوصلكِ .

الفصل الأخير

خالي أدهم

رحل إياد إلى مصر وأقيم حفل الخطبة.. كان حفلاً هادئاً بسيطاً كانت نسيم نجمته المضيئة وجوهرته اللامعة.. انهالت المباركات عليها هي وأحمد، وأثناء ذلك ارتفع رنين هاتفها.. صممت على تجاهله، لكن من الواضح أن المتصل يأبى إلا أن يكون مزعجاً، وتحوّل الرنين على هاتف الشقة نفسها.. رفعت سماعة الهاتف فى وجل ليأتيها الرد الصادم:

-آنسة نسيم.. أرجو منكِ الحضور فوراً.. الوالدة تحتضر.

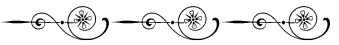

-أين كنت كل هذه الفترة.. لماذا تغيبت عنا؟.. لماذا تركتنا؟.. أرأيت ما آلت إليه الأمور.. أرأيت ما حدث لي.. وأشارت إلى نفسها وقالت بصوتٍ مبحوحٍ تخيل يقولون عني إرهابية هل أنا كذلك؟

-احتضنها.. ثم قال في حنان لا يا حبيبتي لستِ كذلك لقد عدت لن أترككم ثانية، لا تخشِ شيئاً

-هل أمي بخير؟

-نعم هي وأبوكِ ومحمد.. كلنا بخير والأمور تسير على أفضل ما يكون، وأنا على ثقة بأن الله سيمن علينا ويتم فضله ببراءتك.

-هل تتوقع ذلك؟!

-نعم.. ما هذا اليأس الذي يلوح على وجهكِ لم أعهدكِ هكذا.. باقي ثلاثة أيام على جلستكِ، وأنا واثق كل الثقة أنكِ ستحصلين على الإفراج، بل وسيعوضوكِ عن الأشهر التي مكثتيها هنا بغير حقٍ .. ضحكت في سخرية قائلة:

-ما هذا الخيال الواسع؟

-ليس خيال يا حبيبتي لقد عانيتِ بما فيه الكفاية، آن الأوان أن ينتصر الحق على الباطل.. وأن يحل العدل محل الظلم.

-لا أظن.. لقد اعتدت طعم الظلم حتى أصبحت لا أستسيغ غيره.

أحاطها بذراعيه وقبل رأسها:

- أنا آسف.. آسف على كل ما حدث لكِ.. أحسني الظن بالله والجأي إليه فهو الوحيد القادرعلى إزالة هذه العتمة.

وقبل أن تصل نسيم إليها وضع الطبيب المكلف برعاية الفقيدة الغطاء الأبيض على وجهها.. لم تستطع أن تتحمل رؤيتها هكذا، وقبل أن تستوعب ما الذي يحدث، وقبل أن تصرخ حتى خرت مغشياً عليها.. وضعها الأطباء في غرفة إلى جانب غرفة أمها، وتولى أدهم القيام بإجراءات خروج الفقيدة من المشفى.. لم تكد نسيم أن تفيق حتى جاء رجلاً يرتدي حلة سوداء، ورباط عنق أسود أيضاً، وتبدو عليه مظاهر الهيبة والوقار.

جلس الرجل بجانبها وعندما علم أن هناك من ينهي إجراءات خروج الفقيدة من المشفى هاج وماج وكان مبرره الوحيد أن هناك وصية للفقيدة أمرت أن تطلع عليها ابنتها بعد وفاتها وقبل حتى أن تنتقل من فراشها الذي

توفيت عليه.. التف الجميع حول فراش نسيم وجلست أروى بجانبها، واحتضنتها وظلت تربت على كتفها من آنٍ لآخر.

تنحنح الرجل ذو الحلة السوداء، ثم أخرج من حقيبة معه ظرف مغلق، وقبل أن يفض غلافه نظر إلى نسيم متردداً وقال في لهجة تحمل بعض الإحراج:

-هل أقرأ هنا وفي حضور هؤلاء ثم أشار إليهم.

-أشارت برأسها أن نعم.

أمسك الرجل بالورقة وبدأ يقرأها بصوتٍ رخيمٍ حزينٍ.

" ابنتي نسيم ها أنا قد وصلت إلى آخر العمر وهاهو العمر قد خانني، وخان أحلامي، وتوفيت قبل أن اطمئن عليكِ.. كنت أشعر أن وفاتي قريبة لذلك آثرت أن أترك لكِ هذا الخطاب عللكِ أن تسامحيني على ما فعلته بكِ، لن أطلب منك التماس الأعذار.. لكن صدقيني يا ابنتي لقد فعلت كل ما أستطيع فعله من أجل أن أنجو بكِ.. تقاذفني بحر الحياة بين أمواجه المطلاطمة دون رحمةٍ أو هوادةٍ.

هربت بكِ ولكِ ومن أجلكِ.. كنت وقتها لا تزالين قطعة لحم حمراء في أحشائي ومع ذلك فضلتكِ على الزوج والابن والأهل وكل الوطن.. كنت أعلم أن لهيب الغربة سيحرقني، لكنني أقسمت أن أحول لهيبها جنة لكِ، فقد كنتِ منبوذة مكروهة منذ أن حملتكِ في أحشائي.. لم يفرح بكِ أحد ولم يستقبل وجودكِ أحد.. كل ما فعله أبوكِ هو أن ضربني وأهانني ووضع قدمه على عنقي مهدداً إياي بالقتل إن لم أجهضكِ وأقتلكِ أنا بيدي.

صمت المحامي ريثما تهدأ هي فقد على صوت نحيبها.. ألقى الرجل نظرة على الحضور فوجدهم جميعاً متأثرين.. فرت الدماء من عروقهم واستقرت في وجوههم.. نظر يمينه فإذا برجل كبير بعض الشيء يبدو أنه تجاوز الخمسين عاماً بقليل يحاول أن يسيطر على دموعه التي توشك أن تقفز من عينه،

لم يستطع أن يخمن من هؤلاء وقبل أن يكمل قراءة الخطاب، قال في لهجة متسائلة:

-هل يمكنني معرفة من هؤلاء؟

أجاب أحمد بالنيابة عنها:

-أنا خطيبها وهؤلاء هم أهلي.

رفع الرجل الورقة مرة ثانية أمام عينيه وأكمل القراءة

"أثناء هذه الأحداث لم يكن لي معينٌ سوى أخي الوحيد الذي فررتُ إليه.. واتخذت من بيته مستقراً لي.. بعد هذه الواقعة بشهرواحد أتاني أبوكِ معتذراً إلي ومكفراً عن ذنبه، وناعتاً نفسه بأبشع الصفات على جرمه الذي ارتكبه معي، وأخبرني أنه قد تراجع عن ذلك تماماً.. عدتُ إلى المنزل فرحة أمني نفسي باليوم الذي ستخرجين فيه للدنيا.. كم تخيلتكِ جميلة رقيقة وديعة كي تجعلي من قلب أبيكِ القاسي مأوىً لكِ؟

فى هذه الأثناء كانت لأبيكِ أخت واحدة مريضة، تركها زوجها ورحل دون أن يلتفت لابنه الصغير الذي خلفه وراءه.. ويبدو أن عمتكِ قد أورثت ابنها هذا الضعف وذاك المرض حتى ولد هذا الولد بكلية واحدة ومصابة بالفشل الكلوي.. وذات يوم تأخر أبوكِ في غرفة مكتبه، هبطت إلى الطابق السفلي كي أطمئن عليه فوجدته يحادث أخته في الهاتف وبدون قصد سمعت حديثه معها وكانت الصدمة التي قلبت حياتي رأساً على عقب، لقد كان والدكِ يعدها بأنه سيبقي على حملي وبمجرد أن تولد هذه الفتاة سيعهد بها إلي أحد الأطباء الأجانب كي يستأصل كليتها ويمنحها لهذا الطفل المريض.. كان أبوكِ يحب عمتكِ ويشعر أن الزمن غدربها أكثر من مرة.. مرة عندما مرضت بهذا المرض، وهي ما زالت شابة، ومرة حينما هجرها زوجها دون أن يأبه لمرضها، ومرة أوجعها الزمن في ابنها الذي لم يتجاوزعمره بضعة أشهر..

كنت أشعر أنني أستمع إلى شيطان، وليس إلى زوجي الذي لطالما أحببته ومنحته كل شيءٍ.. كرهه لأن ينجب فتاة أولاً، ومحاولته قتلها ثانية، جعلني أخشى على نفسي منه.. هرولت إلى حجرتي أخذت من أموالي ومجوهراتي ما يمكن أخذه ثم هربت إلى هنا مخلفة ورائي أخاكِ، ولكنني أطمئن عليه مع أبوكِ فهو يحبه ويفضل البنين على البنات فقد كان أبوكِ على علمه وثقافته لا تزال به هذه النزعة الشرقية المتخلفة.

لا تلوميني يا ابنتي.. أبوكِ كان رجلاً مرموقاً، ويده طائلة يستطيع أن يفعل بها أي شيءٍ.. وقبل أن يكمل الرجل قراءة، ارتفعت آهة عميقة من صدر الرجل الجالس على يمينه أفزعتهم جميعاً.. انهار الرجل أمامهم ولم تفلح محاولتهم في تهدئته ولم يدرِ أحدهم ما السبب في ذلك؟

بعد مرور بعض الوقت، رفع المحامي الورقة ثانية حتى يكمل قراءتها :

" حاولت أن أجعل منكِ طبيبة كي لا تشعري أنكِ أقل من أخوكِ.. فهو كان يعزم على أن يجعل منه طبيباً هو الآخر.. كنت أراكِ تكبرين وتنضجين أمام عيني، بقدر ما كنت أفرح بكِ كنت أشفق على أبوكِ، صدقيني يا ابنتي هو يستحق الشفقة!

كيف لهذا الجمال أن يلفظه صاحبه، كيف لهذه الفتاة الرقيقة الوديعة المسالمة أن يطردها أبوها، وهي التي لم ترتكب إثماً.. ولم تفعل ذنباً، أعلم أنكِ الآن في أشد الحاجة لمعرفة مَن هو؟ لكم امتنعتُ عن الإجابة عن هذا السؤال متجاهلة رغبتكِ الملحة في معرفة جذوركِ؟.. حان الوقت كي أخبركِ، لكن أولاً وصيتي لكِ ألا تلجأى إليه مهما حدث لقد رأيتُ منه ما رأيتُ وعانيتُ منه كل المعاناة.

أعلم أن الغربة قاسية، وأن حياتكِ ستكون صعبة وأن الكثير من العقبات ستواجهكِ، لكن إن كان لابد أن تلجأي إلى أحد فألجأي إلى أخيكِ أنا على يقينٍ من أن الله سيهديه من أجل دعواتي، وسيجعله صالحاً باراً بكِ من أجل هذا اليتم الذي تعانين منه وأبوكِ لا زال على قيد الحياة!

لقد حذرتكِ منه يا حبيبتي، ولكم امتنعت عن إخبارِكِ من هو تفادياً لحنينك له، أعلم أنكِ رقيقة بمجرد أن تعرفيه سيدفعكِ فضولكِ إلى الذهاب إليه.. لا تفعلى ذلك يا ابنتى.

وأخيراً أبوكِ رجل مصرى الجنسية يُدعى" كمال النشار".

وهنا التفتت الأنظار كلها إلى الرجل الخمسيني، وأخوكِ الذي خلفته ورائي اسمه "أدهم" لا بد أنه أصبح رجلاً الآن وله أسرة وأبناء.. إن ضاق بكِ الحال ولم تجدي معيناً فاذهبي إليه.. لقد أرسلت عيوني إلى مصر منذ أعوام قليلة فأخبروني بصلاحه وتقواه.

سيطرت الصدمة عليهم جميعاً إلا هي.. لم تستوعب ما الذي يحدث؟ ولم تفهم ما الذي يدور؟.. هتفت في ضيق:

- أنا لا أفهم ما علاقتكم بكمال النشار هذا.. لماذا صمتم هكذا وكأن على رؤوسكم الطير..

قال دكتور كمال في صوت حاول أن يجعله هادئاً:

-هل لي أن اكمل لكِ الحكاية يا ابنتي؟

-تفضل.

-أجبيني أولاً ما رأيكِ بي؟

-تبدو رجلاً وقوراً هادئاً طيب القلب.

-وهل سيتغير رأيكِ هذا إذا علمتِ بأني أنا أبوكِ؟

كان سؤلاً مباغتاً.. لم تستطع أن تنطق هي أو حتى تعبرعن ذهولها ولو بكلمة واحدة.

-لقد انتقم الله من أبيكِ شر انتقام.. لقد وقع عليه من الله ما يستحقه.. لقد توفيت أخته.. وانزل الله الرفق واللين في قلبه حتى بات يبحث عنكِ أنتِ وأمكِ في كل بلدان العالم، لكن أمكِ كانت قاسية وبشدة.. أجادت التخفي عنه.. وهاهو ما زال الله ينزل عقابه به.. حتي جاء به مجروراً من عنقه كي يدركِ في مأساتكِ هذه.. ولم يكتف بأبيكِ فحسب، بل أتى بأبيك وأخيكِ وكل عائلتكِ.

جحظت عيناها وصمتت.. ولم تدرِ بماذا تجيب؟.. لقد حرمها الله من أمها لكن أبدلها مكانها الأب والأخ والعائلة.. هل سيغني وجود هؤلاء عن أمها!!

وقبل أن تعقد هذه المقارنة المشؤومة، تحرك أدهم جالساً بجانبها وأحاطها بذراعه، ثم طبع قبلة على جبينها.. حينها مدت يدها نحو خاتم الخطبة الذي لبسته منذ لحظات محاولة إخراجه من يدها.. ثم وضعته بجانبها.. وبمجرد أن رأها الأب تفعل ذلك هتف صائحاً:

-لا يا ابنتي ضعيه في إصبعكِ كما كان.

تعلقت به الأبصار مبهورة في محاولة منهم لفهم تصرفه.

هتف في صوت بائس:

-أحمد ليس بأخيكِ كما يعتقد جميعكم.

هب أحمد واقفاً وهتف في عدم تصديق:

-ماذا تعني؟!!

-يبدو أنها ساعة الاعترافات يابني.. أتذكرون العمة التي تحدث عنها الخطاب.. أتذكرون ابنها المريض.. إنه أحمد .

لقد وعدتها قبل أن تموت أن أضع أحمد بمنزلة أدهم بل وأكثروقد فعلت كل ما أمكنني فعله ثم التفت نحو أحمد قائلاً:

-أرجو أن أكون حققت ذلك يا بني.

ركع أحمد على قدميه بجانبه ثم قبل يده وقال والدموع تقف على أعتاب عينه:

-لقد فعلت ذلك.. ثم قال متردداً، يا خالي.

قام الرجل وأحتضنه بقوة:

-بل والدك لست خالاً فقط ولكنني والدك يا بني.

نظر أحمد إلى نسيم ثم قال ودموعه تسبقه:

-هاهو القدر ينزع منا كل شيءٍ ليهديه لأناس لم يحلموا به يوماً.. ثم ابتسم مردداً:

-ألم يكفيكِ انتزاع قلبي.. بل وأهلي كذلك!

قال الأب موجهاً كلامه إلى الجميع بما إن هذه ساعة الاعترافات يا أبنائي فإنه من المحتم أن أخبركم من هي أروى بالنسبة إليكم؟ تعلقت به الأبصار ثم قال موجهاً كلامه إلى أروى، هل تذكرين الصورة التي أريتها لي يوماً، وهل تذكرين وصية أبوكِ قبل موته بلحظات بأن أبحث عن أخته وابنتها؟.. أخذ نفساً عميقاً ثم أردف:

-إن مريم هي عمتكِ ونسيم هى ابنة عمتكِ.

شخصت الأبصار جميعاً في محاولة منهم لاستيعاب ما قال ... كان أدهم أول المتحدثين:

-هل هذا يعني أن أروي هي ابنة خالي؟!

-نعم يا بني.. أروى هي ابنة خالك وأمك هي عمتها.

هذه الدنيا على اتساع حجمها فهي صغيرة، وعلى قسوتها فهي رحيمة.. لوهلة تخيل الجميع أنهم باتوا بلا أهل أو عشيرة وهاهي الأيام تكشف لنا النقاب عن ما حاول البشر جاهدون أن يخفوه يوماً؟

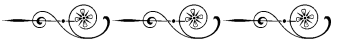

وصل أدهم إلى مصر قبل الجميع، فميعاد جلسة عائشة يحتم عليه ذلك.. تركهم يرتبون إجراءات سفرهم جميعاً بما فيهم الفقيدة ورحل هو.

لم تكن جلسة ناجحة بالمرة.. رغم أنه لو كان قاضياً واستمع إلى دفوع المحامي هذه لمنحها الحكم بالبراءة فوراً.

كانت التهمة الأساسية الموجهة لها هي الانتماء إلى جماعة إرهابية، والتخابر لصالح دولة أجنبية.

وقف المحامي مدافعاً عنها بكل ما أوتي من بلاغة وفصاحة:

-سيدي القاضي.. كلنا يعلم أن من يقوم بالتخابر مع دولة أجنبية لابد أن يحصل على مقابلٍ مادي لما يقدمه من معلومات ولما يقوم به من إرهاب وتخريب.. إذن فكيف بهذه البائسة ولهذه الأسرة الفقيرة التي لا تملك قوت يومها أن تقوم بفعل ذلك دون مقابل.. وهذا بيان من مصلحة الشهر العقاري يؤكد أن هذه الأسرة لا تملك سوى غرفة فوق سطح أحد العمارات.. هل ستفعل المتهمة ذلك دون مقابل أم صدقة لوجه الله.

تنحنح القاضي في هدوءٍ ثم قال:

-وماذا إن كانت العقارات أو المكافأت المالية تضعها في حساب باسم شخص آخر حتى لا يكتشف أمرها؟

-أعتقد سيدي القاضي أنه عندما تم القبض عليها قد حُرزت أشيائها وما زالت حقيبتها موجودة في الودائع التي توضع تحت رقابة النائب العام.. فماذا وجدتم بها غير مصحف، وأوراق تخص دراستها؟.. هل كان بها مستندات أو وثائق تخص الجيش والشرطة أو القضاء؟؟

وهل وجدتم على هاتفها اتصالات بأرقام خارجية؟

وهنا ارتفع صوت المدعي العام قائلاً:

-وهل من المفترض بإرهابية خسيسة أن تحتفظ بأرقام مثل هذه؟.. هل هي رعناء إلى هذه الدرجة؟.. المتهمة كانت حريصة لأبعد حد.. لقد كانت تخفي الوثائق جيداً وتقوم بحذف اتصالاتها أولاً بأول..

عبث المحامي بمستنداته ثم أخرج منها ورقة وجهاز صغير لا يكاد حجمه يتعدى عقلة الأصبع..

اتجه نحو القاضي حاملاً هذه الأشياء ثم قال وابتسامة الظفر تلوح على فمه:

-وماذا سيقول سيدي لو أنبأته بأن الورقة التي بيدي هي بيان من شركة الاتصالات الخاصة التي كانت تتبعها موكلتي وتقر هذه الورقة أنها لم تحادث رقماً أجنبياً خارج مصر سوى رقم واحد كان يحمله أخوها المغترب.. ثم ما هو قول عدالتكم إذا أخبرتكم أن هذا الجهاز الصغير الذي بيدي ما هو إلا مسجل صغير للمكالمات التي قامت بها موكلتي في الستة أشهر الأخيرة قبل أن يتم القبض عليها؟ ولم يوجد من بينها اتصال واحد يؤكد ما نسب إليها من جرائم.

ارتفع صوت المدعي العام مرة أخرى:

-وهل هذه المتهمة ساذجة إلى هذا الحد حتى يكن لها رقم واحد دون أن يكون لها أرقام أخرى خاصة بعملها.. إنها فتاة ليست بالعادية ولابد أن تخطط لشيءٍ مثل هذا.. ظلت المرافعة قائمة إلى أن جاء الرد الأخير من القاضي:

-تؤجل القضية لجلسة الأول من يوليو.

انصرف الجميع.. قال أدهم بصوت هادئ موجهاً كلامه إلى جاسر:

-كنت رائعاً.. أعانك الله فالأمر جد خطير.

-أعلم ذلك.. لولا وجود هذا المعارض لكل ما أقول لاستطعت أن أحصل على براءتها من أول جلسة.

-الله المستعان.. هيا إلى المكتب لنتدارس ما سيتم قوله في الجلسة المقبلة.. وما هي الوثائق والمستندات التي سنتحتاجها.

وبعد خمسة أشهر رحل الجميع إلى فرنسا فأروى ستناقش رسالتها بعد غدٍ، رحلوا جميعهم باستثناء أدهم وأحمد الذين سيلحقون بهم فى الصباح.

عاد أدهم في وقت متأخر من الليل، وبمجرد أن قاربت سيارته على المكان الذي توجد به الفيلا التي يقطن .. رأي ألسنة اللهب تطل من نوافذها والدخان والعتمه تحيط بكل شيءٍ ، ترجل من السيارة وذهب عدواً حتى وجد الخدم وكل من بالفيلا يحاول الخروج منها .. والصراخ والعويل ينتشر في الأفق .. حاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه وماهي إلا دقائق حتى أتت الشرطة وسيارات الدفاع المدني.

كانت أمارات الفزع والخوف تظهر بوضوح على وجوه جميع الحضور لكنهم يكتمون مايشعرون به .. إلا واحدة كانت تصرخ بكل ما أوتيت من قوة وتخمش وجهها وتشق ملابسها .. اقترب منها كي يعرف ما الذي حل بها .. ظل يهتف بها:

-ماذا هناك.. لكن صوته ذهب هباءً مع الهرج والمرج الذي أحاط بالمكان.. ولاها ظهره، وبمجرد أن التفت نحو الجهة الأخرى حتى وصلته صرخاتها .. أبنائي بالداخل.. أبنائي سيموتون حرقاً.. ولد وفتاة مازالوا أطفالاً كتب عليهم أن يجربوا نار الدنيا ألا يكفي ما أمهم فيه.

ظلت تصرخ حتى لم تعد تحملها قدماها، فارتمت على الأرض تضرب على وجهها وتقطع شعورها ولوهلة تذكر خطاب أمه .. تذكر تضحياتها بكل شيءٍ من أجل نسيم .. وتذكر نفسه وهو صغير ماذا كان ستفعل أمه لو كان هو ونسيم مكان هؤلاء الأطفال.. ذهب مسرعاً إلى المرأة:

-أخبريني أين أبنائكِ؟

-إليك عني .. دعني وشأني سأخلصهم أنا وركضت نحو الفيلا.. ولم تفلح محاولتهم في إثناءها عن عزمها.. كانت كاللبوءة التي يحرقون أبناءها أمام عينيها.. اقترب منها بخطوات ثابتة، ونظر إليها بجدية قائلاً:

-ابقي مكانكِ.. سأخلصهم أنا.. فقط أخبريني أين مكانهم.

-شكراً لك يا سيدي.. إنهم في مخدع الخدم بالجزء الخلفي منه.. بالغرفة رقم سبعة .

-وبخطوات واسعة اتجه أدهم نحو الباب الخلفي فوجد النيران تكاد أن تطل منه.. تردد لحظة لكن وجه نسيم الهادئ الوديع باغته.. اقتحم النيران وهنا ارتفع صراخ كل من بالفيلا من خدم وجيران وعمال وبعد لحظات قذف أدهم بالطفلين من النافذة الأرضية للغرفة.. التقطتهما الأم جزعه.. وضعتهم في حجرها وتلقائياً أخرجت لهما صدرها كي يهدأوا بعد أن اطمأنت أنهم لم يصابوا بشيءٍ سوى الهباب الذي حول بشرتهم البيضاء إلى سوداء.

ظلت أنظار الجميع معلقة بالنافذة لعله يقفز منها هو الآخر.. وأخيراً لاح شبحه لكن النيران كانت مشتعلة بكل ملابسه تريث قليلاً ريثما يتخلص من ملابسه العلوية التي التهمتها النيران وأتت على جسده هو الآخر، لكن القدر أبى إلا أن يخطفه هو الآخر ويلحقه بأمه!

في هذه اللحظة تحديداً سقط سقف الطابق العلوي حتى ساوى الطابق السفلي بالأرض .. ارتفع الصراخ والبكاء والعويل وإذا نظرت إلى يمينك وجدت امرأة تصرخ بهستريا وهي تشج ملابسها وتضرب برأسها في الأرض قائلة :

-أنا السبب.. أنانيتي هي السبب.. أنا التي قتلته من أجل أبنائي.

وماهي إلا دقائق حتى رفعت قوات الدفاع المدني الأنقاض، وأخرجت مَن تحتها هذا الجسد المهشم ذو الوجه الذي التهمته النيران وغطته الرمال والأتربة .

وهنا اقتحم أحمد الفيلا وهو لايدري ما الذي يحدث.. وفجأة ساقته قدماه إلى حيث أدهم دون علم منه ما الذي أصابه.. وفجأة إذا بهم يخرجون جسداً من تحت الأنقاض عرف فيه جسد أدهم.. ارتمى أحمد على أرض الحديقة واستلقى أدهم بين ذراعيه.. وبدت الدموع تترقرق في عيني أحمد.. نظر إليه أدهم نظرة لوم وعتاب قائلا:

-أتبكي يا أحمد؟

ازدرد أحمد دموعه وهتف:

-ابدأ يا أدهم.. لن أبكي فأنت بخير.

-ما دمت جواري فأنا بخير.. صمت أدهم برهة يحاول أن يلتقط أنفاسه ثم تمتم قائلا:

-هل انطفأت النيران؟

-أجل يا أدهم.

-والأطفال بخير؟

-ويلعبون في الحديقة الآن.

-الحمدلله

وصمت برهة يحاول أن يتمالك قواه ثم همس:

-لم أخبرك من قبل أنني أحبك.. مضى العمر دون أن أخبرك بذلك، لكنني أفعل الآن يابن عمتي.

-بل أخوك الذي يفديك بعمره.

-لا فائدة.. لقد انتهى كل شيءٍ .. صمت أدهم وحاول أن ينزع خاتم خطبته ثم وضعه في يد أحمد .. ضغط علي ضروسه يحاول كتم صيحة توشك أن تفلت من بين شفتيه ، ومالبث أن استرخى وفتح عينيه وهمس قائلا:

-قبل أن أذهب لي عندك رجاء.

تساقطت دموع أحمد حتى سالت على خد أدهم وقال بصوتٍ يخنقه البكاء:

-سينجيك الله يا أدهم.. أنا طلبت الإسعاف سيأتون الآن وسيداوي الطبيب جراحك ويخفف ألامك.

-لا فائدة، لقد ذهب الألم وذهب العمر معه.. فقط خذ خاتمي هذا وأعطه لأروى.. اعتذر لها عن تقصيري في حقها، قل لها أنني لطالما تمنيت أن أتزوجها وأن أعوضها عن كل ما فات.. قل لها أني أحببتها كما لم أحب أحداً في حياتي.

-بل أنت بخير، وستقول لها كل ما تريد بنفسك.

-أما نسيم فأنا أعلم كم أنا أخ عاق؟ تركتها وذهبت بمجرد أن عثرت عليها.. أخبرها أنني أحبها.. لن أوصيك عليها يا أحمد فهي زوجتك وابنة خالك قبل كل شيءٍ.. عدني أنك لن تؤذيني فيها.

-أعدك.

-أما أبي.. فقل له أنه ما زال كما هو في نظري، ولم يغير ماضيه من حبي له شيئاً.. أوصيه يا أحمد ألا يجزع فهاهو الله رفق به حينما أخذني منه ومنحه نسيم عوضاً عني.

صمت أدهم وأرخي جفنه وشاعت في قسماته السكينة والرضا.. تنهد أحمد في ألمٍ... ثم أطلق العبرات الحبيسة من مقلتيه.

هذه هي الدنيا عجباً لها.. تتخلص من الطيبين سريعاً من كان يصدق أن أدهم الجميل المحيى، الباسم الثغر، الوسيم الملامح، الرقيق، المتدين الخلق، من كان يصدق أنه سيموت بهذه الطريقة الشنيعة.. هل يا تري تآمر كل شيءٍ عليه حتي المبنى أبى إلا أن يجعل منه جسداً مهلهلاً يخترقه التراب والحديد والحصى، أم أن الأرض أبت إلا أن تحتفظ بهذا الشاب الذي لا يوجد مثله، فهي أولى به من الدنيا البائسة ومن هذه الأيام الغادرة ومن هؤلاء البشر الماكرين.

وهكذا انتهى كل شيءٍ وبخلت الدنيا بتحقيق أمانينا كلنا.. كل شيءٍ في هذه الحياة أصبح موحش خرب.. ورغم ذلك الدنيا تسير كما كتب الله لها أن تسير.

لن تغرب الشمس لموت أحد.. ولن يمتنع النهار عن الطلوع لغياب أحد.. فالشمس تشرق وتغرب، والليل يكر في أثر النهار، والنهار في أثر الليل.

ظلت أروى كما هي لا تفعل شيئاً سوى أن تقبل خاتمها وتتحسه بحنان وكأنها تتحسس أدهم.

أما عن "الدكتور كمال" فكان يسجد لله شكراً كل صباح على وجود نسيم في حياته فلولا وجودها لحرم من نعمة الأبناء بعد وفاة أدهم..

وأما معاداته لجنس الفتيات، فمريم ابنة نسيم أصبحت هي حبيبة جدها التي لا ينبغي لأحد أن يحزنها وإلا ضرب عنقه.

وأما عن عائشة فإذا أردتم أن تعرفوا نهايتها فأسالوا كتب القانون المليئة بالثغرات التي تجعل من البريء متهم ومن الجاني مجني عليه.. اسألوا تاريخ القضاء المصري منذ أن سجن يوسف ظلماً وزوراً.. اسألوا القضاة الذين يصدرون إعدامات بالجملة على طلبة الجامعات لمجرد أنهم عملوا بحقهم الدستوري الخالص في إبداء الرأي وحرية التعبير، وفي حرية الانتماء لأي دين، وأخيراً ففي الغالب:

"الإعدام كلمة ينطق بها قاضٍ لم يطلع على القضية بشكل كافٍ.. كلمة تنهي حياة إنسان.. وتحرق قلب أم.. وتدمر أسرة باكملها"

هذه هي النهاية توفي الوزير خالي.. وتوفيت أمي وأخيراً غادرنا أدهم.. وهكذا غربت الشمس!

طوت مريم آخر صفحة في الكراس الذي كانت تقرأ فيه.. انحدرت دمعة على وجنتيها ابتلعتها في ألم محاولة كتمان ما تشعر به من غصة في حلقها توشك أن تقضي عليها.

مد أدهم ذراعه ثم ضمها إلي صدره قائلاً:

هل لي أن أكون لك كخالي أدهم لأمي، غير أني لا أريد أن أموت قبل أن أحدث هذا التغير الذي بدأه، والذي لم يمهله العمر كي يكمله؟

ابتسمت ابتسامة ممزوجة بالدموع ثم قالت:

رحمه الله وعوضه عن شبابه خيراً.

- آمين

تمت بحمدالله

رسالتنا

نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook.com/arabiclibrary2017